أندريه مالرو

أنا وديغول

أو

السنديانات التي يقطعون



مارون

روائع الأدب والفكر منقولة الى العربية

أندريه مالرو

أنا وديغول

أو

السنديانات التي يقطعون

ترجمة

هنري زغيب

عويدات

Editions Gallimard

5, rue Sébastien-Bottin
75341 Paris Cedex 07
Téléphone 544-39-19
Télex GALLIM 204121 F
Adresse télégraphique
ENEREFENE Paris 044
Société anonyme au capital
de 8 737 300 F
572206753 B RC Paris

الطبعة الاولى ١٩٨٣

IV

أنا وديغول
أو
السنديانات التي يقطعون

كولومبيه : الخميس ١١ كانون الأول ١٩٦٩

امحّى تعب حكم الأيام الأخيرة . استدار الجنرال ديغول ، بحركة ، على احد المقاعد الجلدية . وهيمنت قامته الطويلة ، وهي تقوست قليلاً ، على كل هذه الغرفة الصغيرة حيث تتقد قطعة من حطب . جلس بعكس الضوء ، اتقاء لعينيه وراء طاولة للعب الورق ، ذات بساط اخضر . ولم اكن ، في الايام المتألقة ، حضرت مأدبة عشاء في الإليزيه ، وسط صالون الشرف الزائد التذهيب كما قصور القرن الماضي ، الا ووجدت تلك المأدبة إلى هباء بجميع مدعويها المائتين والخمسين ، وجميع موسيقييها تحت الجدرانية الحاملة رسم « اليودور » عن لوحة رافاييل ، وكل موسيقى موزار ، وموكبها عن آخر أيام آل هابسبورغ . . . خروتشيف ونهرو وكينيدي في صالة المرايا / فرساي ، وقصر تريانون المرمّم ، المسكون بهاجس الرحيل .

فيما اشد يده محيياً ، اكتشفت كم يدا هذا الرجل العظيم صغيرتان وناعمتان . وكذلك يدا ماوتسي تونغ الحارتان ، بدتا لي يدي رجل آخر .

بعد عبارات الترحيب ، انتقلنا الى مكتب عمله . وتساءلت : هل نبل هذه الغرفة ناجم عن تلازم نِسَبها ونِسَب

المكتب ، ام عن الثلاثة الشبابيك وراءه توحي بالفسحة التي تحتلها الكتب في الحائط ـ المؤلفات الكاملة لبرغسون ، صديق عائلته ، ومؤلفاته هو ، اومأ لي اليها ـ أم عن منظر الجنرال نفسه أمام منظر كبير ، بالابيض والاسود ، للثلج على كل فرنسا ، ومقعد واحد امامه ؟

قال لي ذات يوم ، ونحن نجتاز الحديقة : « انظر . كل هذه المساحة هناك ، بقيت مسكونة حتى القرن الخامس . واليوم ، لا ضيعة فيها ، حتى امتداد الافق » .

انها حجرة القديس برنار ، المفتوحة على ثلج العصور والوحدة .

أن يتساءل أصدقاؤه وخصومه عن السبب الحقيقي لرحيله ، فأمر يدركه هو وكان أعلنه ، ولم يعد يهتم له . ففي البلاد ، تفاوت واضح بين الاستفتاء والمناطق ومجلس الشيوخ (كل جهاز المعاينة الأخيرة) ، وبين رحيل الجنرال ديغول بعد انتخابات ديغونية متطرفة . ولم يكن الجنرال مستعداً ان يجابه الا احداثاً تاريخية : اما الموت ، او السر . وكان رحيله الأول مشوشاً ، رغم ادراك الجميع انه لن يعود . لكن ما يسمى بالسياسة الفرنسية ، مكملة طريقها ، على مرأى منه ، وهو الصامت المراقب .

ـ هذه المرة ، قد تكون الأخيرة .

وتعود بي الذكرى الى الصالون الصغير في فندق لابيروز ، عام ١٩٥٨ ، خلال الفوضى العامة :

ـ يجب ان نعرف ان كان الفرنسيون يريدون اعادة فرنسا ، أم يفضلون النوم . وحدي ، بدونهم ، لن استعيدها . لكننا يجب ان نعيد المؤسسات ، ونجمع حولنا ما سمي بالامبراطورية ، فنستعيد الى فرنسا نبلها ومكانتها .

يومها ، كان يتكلم بزخم منيع ، فيما اليوم يتكلم باللهجة التي بها تحدث عن ايطاليا عام ١٩٤١ : « ألن يبقى فيها ، الا ، كما قال بايرون ، الأم الحزينة لامبراطورية مندثرة ؟ »

وحدق بي في تثاقل :

ـ حين رحلت ، ربما كان للبس دورها . انما ، افهم ان كان لي معاهدة مع فرنسا . كانت الامور ستسير في اتجاه سيء او جيد ، انما فرنسا كانت معي ، مثلما ايام المقاومة . وكان هذا واضحاً يوم دخولي باريس ، مدعوماً بموجة عارمة كانت تحمل مركبي . في لندن ، كنت رأيت توافد السياسيين والعسكريين ، ثم الفقراء بحارة جزيرة سين : فرنسا . ما اعظم الفرنسيين حين يؤمنون بفرنسا . وحين يتوقف ايمانهم بها ، تعرف ، حتماً ، عبارة البابا الشهيرة : « الفرنسيون لا يحبون فرنسا » .

المهم . .

انكسرت المعاهدة . فلا داع لأي شيء بعد اليوم . كانت المعاهدة اساسية لأنها كانت بدون شكل ، ولم يكن لها شكل يوماً . فانما دون حق وراثي ولا استفتاء ولا شيء آخر ، كان لي أن اتولى الدفاع عن فرنسا وعن قدرها . واطعت نداءها الصارم الصامت . وذلك ما ، مراراً ، قلته ، وكتبته ، واعلنته . واليوم ، ماذا اليوم ؟ » .

ها هو صار وحده ، منحنياً فوق المساحة المغطاة بالثلج . قال : « كان لي معاهدة مع فرنسا » . فلماذا قال « مع فرنسا » ولم يقل « مع الفرنسيين » ؟ مع هذا ، اكمل :

- لم يعد للفرنسيين طموح وطني ، ولا استعداد لديهم ، بعد ، ليفعلوا اي شيء لفرنسا . « سليتهم بالاعلام والبيارق ، وعلمتهم على الصبر بانتظار ماذا غير فرنسا ؟ »

عام ١٩١٤ ، كان له ٢٤ عاماً ، وكثيراً ما تساءلت ان لم يكن ما يسميه طموحاً وطنياً ، ليس يمتزج مع ارادة الانتقام من صباه . لكنه اضاف ·

- حتى الانكليز ، لم يعد لهم طموح وطني .

حاول الكثيرون تحليل شخصيته سيكولوجياً . امر اجده عبثاً . فهو ثاقب الذهن ، واحياناً طيع : « ذات يوم ، سيتعلق الناس بدفوفنا لينقذوا الوطن » . لكن ذكاءه يبقى على مستوى افكاره (ما كان شاتوبريان يسميه ذكاء النفس الكبيرة) اكثر مما على مستوى الاختراق ، مع ان الاختراق ما كان يعوزه . وثمة ايضاً ، تمسك عنده بأفكاره . من هنا اعتقادي ان كبار مسيحيي القرون الوسطى ، كما القديس برنار مثلاً ، كان لهم ذكاء ذو رسالة . ومن هنا ، أنه مسكون بفرنسا ، كما كان لينين بالبروليتاريا ، وكما ماو بالصين ، ونهرو بالهند . فاول عبارة من كتابه « مذكرات الحرب » مخصصة لها ، واظن فرنسا كانت ابسط في قلبه من اميرة الاسطورة التي يتكلم عليها . وهي التي تزوجها قبل ايفون فاندرو . ومهما كانت مأساته عميقة ، تبقى قريبة من مأساة القادة الشيوعيين الذين انفصلوا عن الحزب .

والجنرال ديغول بعيد جداً عن التفكير بأن فرنسا خانته خدمة لخلفائه . لذا ، قلت له :

ـ ولكن ، في الاشياء الرئيسية التي نفذتها ، كنت دائماً ذا اقلية . . .

وهو ، هكذا ، كان ، في ١٨ حزيران ، ومراراً مع تشرشل ، واكيداً مع فرق ايزنهاور ، وبين مظليي ١٩٥٨ ومتظاهري الباستيل . وكان يقبل بكل هذا ، في مرح . وبالمقابل ، ما كان يفي الاستفتاء حول المناطق ومجلس الشيوخ ؟ ربما كان الفرنسيون اغبياء يومها ، ولكن ، هو ، ما فعل طوال حياته غير ارغامهم للوصول الى التعرف على فرنسا ؟

أجابني :

ـ كنت على اقلية . صحيح . وكنت اعرف ان سيجيء يوم لا اعود فيه كذلك .

تساءلت ، طويلاً ، ما يعني له الفرنسيون . ربما امراً متغيراً ، كما كل شيء عميق . وربما لهذا ، « الطيبون ابناء جزيرة سين » ، كانوا ، في نظره ، مندوبي فرنسا (وكانوا يأتون الى لندن مع الكاناك) . وكذا نظرته الى النساء القررن وضع اجهزة ارسالنا في غرف الخياطة او الدكتيلو ، رغم الخطر عليهن من رافنسبروك ، ونظرته الى حشود الضياع بعد تفريغ المراكب ، وحشود بايو ، والشانزيليزيه ، والحشود التي لاقته خلال جولاته الرئاسية ، وعلاقته ، من خلال الحشود ، مع الأجيال . . . كان يسمي فرنسيين ، جميع الذين يريدون لفرنسا الا تموت .

ومرت في بالي ذكريات خادمات بوليو الكن يستمعن من

الاذاعة الى اعلان الحرب ، ورفاقي في كتيبة الدبابات (بونو المدافع ذي الجرح ، وبراديه ذي الولد ، وليونار ذي الاطفاء ، نجم النجمات) ، ورفاقي في المقاومة السرية ، والنساء ذوات الشال الاسود ، كل واحدة أمام قبر فقيدها ، يوم كنا ندفن موتانا في كوريز . واتذكر ، كذلك ، مديرة الفندق في غراما ، ورئيسة دير فيلفرانش ، وسجين سان ميشال في تولوز الكان يشوش بلهجة منفوقية : « نحن هنا سياح » ، ورجل الغستابو الكان يدخل علينا في السجن صارخاً : « بل انتم هنا ارهابيون » . كما اتذكر اطفال رامونشان وداثماري حين اتوا ليلاً وراء معلمتهم يزرعون بيارقهم الصغيرة على تراب موتانا الأول او على موتانا المتروكين بلا قبور .

ـ هل تعتبر المعاهدةانكسرتفي ايار ، ام قبله : حين اعاده انتخابك ؟

ـ قبله . وعندها استقدمت بومبيدو .

متى ، اذن ، يقصد ؟ عند الازمة البرلمانية ؟ لدى عودته من افغانستان ؟ (عندها ، كان يجب ان يقول لي : احتفظت ببومبيدو) . لكنه لم يلمح الى زمان استقدامه بومبيدو ، لأنه غير محدد . واكمل :

ـ في ايار ، كان كل شيء يفلت مني ، حتى حكومتي . طبعاً ، تغير كل شيء حين اعلنت للبلاد انني سأحل المجلس النيابي . لكن التغير لم يدم طويلاً . كنت اجد في المشاركة وسيلة ايقاظ البلاد ، ووعيها ووجودها ، ثم هزها . لكنها كانت

اختارت . ولا قيمة للحركة إلا بنسبة الاحتمالات التي لا تجتمع قط .

ـ لم أؤمن يوماً بائتلاف رأس المال والعمل ، اي بمشاركة . . .

ـ لكنكم دافعتم عن هذا الائتلاف . . .

ـ حين تدخل في صدام مع الرأسمالية ، تكون نتائج هذا الصدام صارت غير متوقعة . تماماً كما نداء ١٨ حزيران ، او نظام الوحدات . أما الماركسية ، فامضيت وقتي طويلاً اقول لاصدقائي ديغوليي اليسار : تأكدوا ان كلمة « تجمع » ، هي ، لدى الجنرال ، رمز امله .

وكم سر ، يوم اجبت بعض السخفاء الكانوا يصيحون اننا رأسماليون ، بقولي : « ذهبتم الى الرياضات الشتوية ؟ هذا ليس من الرأسمالية ، بل المترو » . وهو طبعاً ليس مدافعاً عن الرأسمالية ، ولكنه ليس مدافعاً عن البيروليتاريا . وهو لم يقبل مشروع التأميم ارضاء للشيوعيين ، بل لأن المشروع ، في رأيه ، وسيلة لاحياء فرنسا . ومن هنا ، يتعاطف مع الماركسية حول الملكية الجماعية (وهو يقولها قومية) لوسائل الانتاج ، ولا يتعاطف معها حول تمجيد صراع الطبقات .

ـ هذا صحيح .

ـ المشكلة الاجتماعية ، حتماً ، لم تكن زالت ، لكنها اتبعت لسواها . وهكذا الأمر ، في العالم كله .

ـ إن العدالة الاجتماعية تبنى على الأمل ، على الاندفاع

للوطن ، لا على الأحذية . الاشتراك ، والمساهمة ، والمشاركة ، رموز . ومستوى المعيشة صار علبة الأحزان في جميع البلدان ويوجه نصف السياسة العالمية ، مع انه ليس الأساس . فمجتمعنا الزراعي القديم ، حوله مجيء الفلاحين الى الملكية . وبهذا ، سيتحول كذلك مجتمعنا الصناعي . المشاركة ، كانت تلمس الطريق نحو التغيير . وانت تعلم ان فرنسا ، في تصويتها ضدي ، لم تبعد الوحدات ونظام للمجلس النيابي ، بل ابعدت خطابه في جيش الجزائر : « أما انتم ، فاسمعوني جيداً : انتم المشاركة . قلت كلمتي ، لكنها جاءت متأخرة . على انني ، سابقاً ، كنت سمعت خطابه في جيش الجزائر : « أما انتم ، فاسمعوني جيداً : انتم لستم جيشاً لمجرد الجيش . انتم جيش فرنسا » .

كما كنت سمعت خطابه حول هدم ما سمي بالامبراطورية ، وخطابه ، في ستراسبور ، وسط عاصفة مثلجة ، امام عدد من الضباط العدائيين : « اذا لا تتبعوني ، تصيرون جنوداً تائهين » . وقبلها بأيام ، كان قال لي : « يجب التخلي عن فكرة ان يهيننا او يتخلى عنا الأقربون . يعتقد الناس انني لا افقه معنى فقدان الاخوة . فهل يعتقدون انني لم اعرف ، كفاية ، طعم سم الكره ؟ سيتعلمون كثيراً بعد . انما علينا القبول لفقدان كل شيء احياناً . والا ، فالضياع يداهمنا . لأن المخاطرة ، كذلك ، لا تتجزأ » . وها هو اليوم ، يتكلم بالحزم نفسه ، لكنه واضع نفسه خارج اللعبة . أحاوره :

ـ لماذا ، سيدي الجنرال ، ركزت على موضوع ثانوي كما قضية المناطق والوحدات ؟ هل لعبثية المواقف ؟

ـ نعم ، لعبثية المواقف .

وعجبت من مدى كونه ماضي فرنسا ، هذا الوجه البدون عمر تماماً ، كما ، خلفه ، هذه الغابة المغمـورة بالثلج ، التي باتت رفيقة عزلته .

ليس من شارل بلا « مذكرات » ، انما لن يستفيض تماماً ، في حديث معه . كان يعبر عن قدر ، وما يزال ، حتى حين يعلن طلاقه مع القدر . فاللحظات الحميمة ، معه ، ليست في كلامه على ذاته ، مما يكره كثيراً ، انما في الكلام على فرنسا (في شكل ما) او عن الموت .

وعاد الى مخاطبتي .

ـ أحسنت بعدم الاستقالة غداة مغـادرتي الايليزيـه . كان الجميع يعرفون انك ستترك الوزارة .

ـ التشريع ينص على أن خلفك ليس حكماً رئيس المجلس النيابي بل مجلس الوزراء . مجلسك انت . وكان يمكن ، قبل الانتخابات ، حصول امور مفاجئة عديدة . ولم يكن واقعياً ، على أي حال ، أن . . .

على أن ما لم يكن واقعياً ، بدأ قبل ذلك . واتذكر آخر مجلس وزراء في رئاسة الجنرال : مشاريع مراسيم غير مهمة ، قبول احـد المدراء محـالاً على التقـاعد ، واتصـالات . وكان وزيـر الخارجية سكت طوال قبل الظهر .

انتصب الجنرال واقفاً :

ـ وهكذا ، يا سادة ، نكون انتهينا . فالى الاربعاء المقبل ،

الا اذا . . . وفي هذه الحالة ، تكون انطوت نهائياً ، صفحة من تاريخ فرنسا .

وانها ، فعلاً ، انطوت .

واستعدت الكلام معه :

ـ في اول جلسة للمجلس النيابي بعد رحيلك ، وجدت نفسي وحيداً في مقاعد الوزراء ، مع كوف ده مورفيل ، في رئاسة شابان دلماس ، ذلك اليوم الشاحب المشهور : لم يتجاسر نائب على الدخول اول .

وهنا ، ايضاً ، كان النور غير واقعي ، بسبب انعكاسه على الثلج . وانني اعرف جيداً هذا النور الابيض ، لأنه يغير الوان اللوحات . انما لا لوحات هنا . وعلى المكتب ، اصطفت اوراق مخطوطة ، هي « مذكراته » حتماً ، في خطه المائل صعداً .

ـ تكتب تتمة مذكراتك ، وكتاباً إيديولوجياً ؟

ـ اكتب مذكراتي من ١٩٥٨ الى ١٩٦٢ . ويلي ذلك جزآن آخران .

ـ ولا عبور في الصحراء ؟ ـ لا سمعتم عن ايديولوجيا ، لأنني لا اكتب نصاً ذا تسلسل تاريخي . تماماً ، كما في « مذكرات الحرب » : اقول ما فعلت ، وكيف ولماذا .

ولمعت في بالي ذكرى اوتيل لابيروز عام ١٩٥٨ . أما هو ، فأردف :

ـ ما أغرب التصارع الى هذا الحد ، كي تنتشل منا ، ما نود

كتابته ، فيما الأمر سهل جداً اذ نتكلم . كانت كوليت تقول : « اللغة الفرنسية صعبة ، خاصة من حيث النعوت والصفات » . لكنها مخطئة ، رغم موهبتها : عبقرية اللغة الفرنسية ، في الافعال . ولكن التحرر من هوس الكتابة ، امر . . .

وهو في هذا يلمح الى التركيب الثلاثي الكان يسكنه ويزعجه . ولم يكن تخلص منه بعد . قلت له :

ـ قيل لي انك تنوي نشر كل ما القيته منذ ١٨ حزيران من خطابات ومؤتمرات صحافية .

ـ جميعها ، عدا ما كنت اقوله لعمدة المدن في الطرقات . ومن الجيد اعطاء الاشياء تواريخها .

ـ قد يكون التأثير الجامع ، فردياً ، لأن اقوالك في لندن ليست خطابات بل مسارات موجهة الى جموع غير منظورة . فيوم اذاعت لنا الاذاعة كمية « الرسائل الشخصية » التي اعلنت حتمية الارساء ، رحت افتكر الخطاب الليلي الذي القاه رودريغ في « حذاء الشيطان » : « ايها الضباط ، ورفاق السلاح ، والرجال المتجمعون هنا ، . . . »

لم أكمل له الباقي ، لكنني استعدته في ذاكرتي : « . . . ايها الرجال المتجمعون هنا ، الذين تتنفسون حولي في غموض ، وسط العتمة ، وجميعكم سمعتم بالرسالة الى رودريغ ، وبتلك الرغبة الطويلة بين تلك المرأة وبيني ، وهي راحت مثلاً يضرب ، منذ عشر سنوات ، بين العالمين ، انظروا اليها ، كما اولئك الذين باعينهم ، المغمضة اليوم ، نظروا الى كليوباتره او هيلين ، أو ديدون ، او ماري ملكة اسكتلندا . . . » .

عملياً ، لن يكون لنا ان نرى اي شيء من الاستعداد المداهم في ذاك الفجر الكنا على موعد معه . منذ زمن ، والكان ، لنا جميعاً ، سيشبه القدر .

وفيما ابيات رودريغ تذوب في ذاكرتي ، قلت للجنرال :

ـ ما يميز اقوالك الملقاة ، هو بعدها عن الخطابات . (حتى المؤتمرات الصحافية كانت وسيلة مجددة للتعبير) . فالكاتب نفسه ، لا يعرف جيداً قراءه . بل إنه مثلك ، يثيرهم لكن كل كاتب كبير مرتبط نوعاً بسابقه ، فيما كلماتك الملقاة لم يكن لها سابق . عدا واحد فقط : هل تتذكر فيزلاي ، وكيف الفرسان ، تحت ، كانوا ينصتون الى القديس برنار الكان ، حتماً ، يخاطبهم دون مكبر صوت ؟ وبعدها ، فوراً ، انطلقوا الى الحملة الصليبية . ومع هذا ، ثمة ، عندك ، دائماً مفاجآت . فانا لا اذكر مصادفتي ، في « مذكرات الحرب » ، عبارة تقول : « طبيعي ، ومبرر ، ان يقتل الفرنسيون الألمان في فرنسا . وما على هؤلاء الا البقاء في بلادهم » .

ـ صحيح . وحين انتهى من الكلام على المؤسسات ، سيكون لي اقول كلاماً آخر . واذا كنت اكتب ، فلأن من ينتظر ليعرف بم افكر وماذا فعلت . وسأقول كل شيء . حتى الذي حدث من قبل .

انني اعتقد ان الرجال يصنعون المؤسسات اكثر مما اعتقد العكس . لكنني اعرف ان هذا الكتاب ، وريث « مذكرات الحرب » ، سيكون اختصاراً رومانياً للاحداث ، مبسطاً ، (ذاك التبسيط الذي ، به ، في الأدب كما في الهندسة المعمارية ،

فرضت روما ، وفي قوة ، نظامها) ونسياناً لكونه فرض بالقوة ، ما كان يريده . واذ هو لاتيني ، لا روماني ، يعني أن النتيجة عكسية تماماً . وأجابني :

ـ أحب رواية « الفرسان الثلاثة » ، كما ، كذلك ، روايتك المحببة « الهر المحتذي » . لكن نجاحهم ، في كون الحرب مع انكلترا لا تدين بشيء لسياسة ريشليو ، بل لاطراف الشريط في حذاء آن ملكة النمسا ، والذي عقده لها دارتانيان . هكذا الناس : يريدون ان يشبههم التاريخ ، واقله ان يشبه احلامهم . ومن جيد الامور ، ان لهم احلاماً كبيرة .

ـ ثمة قطاع ، في الادب ، لم يعزله النقد ، لأنه يمزجه مع ادب المذكرات ، هو قطاع الكتب التي تروي ما فعل كتابها ، لا ما أحسوا . فالمذكرات ، غالباً ، استعادة للعواطف والاحاسيس . بينما سرد تنفيذ مصير عظيم ، يفترض هموماً اخرى . ولو كتاب « حرب المغول » لم يكن من وضع القيصر ، لما كان الكتاب افضل او أسوأ . لكنه ، ما كان ليكون من المناخ نفسه . ولو « كتاب المذكرات » كان فقط ذكريات ، دون ان يكون فيه كلام لنابوليون ، لكان كتاباً آخر . كثيرون هاجموك وكثيرون احبوك وقدروك . ولا اجد سوء تفاهم في الموضوع . فـ« مذكرات الحرب » لا علاقة لها مع « مذكرات ما وراء القبر » ، وكذلك في ما انت تكتبه اليوم . فالوسائل ليست موجهة دائماً من غاية واحدة .

في رأيي ، « مذكراته » ـ سواء نصها في صمود فرنسا خلال محنة ١٩٤٠ ، او في امل ١٩٥٨ ـ هي تراجيديا ذات بطلين :

هـو والفرنسيـون . في الحرب وفي السلم ، تبقى فـرنسا هي الرهان . ومراراً ، قومها ، ضد اكثرية الفرنسيين ، وهو يحس تجاهها ، بفخار داخلي عظيم . فهل كان يأمل ان يفهم التاريخ موقفه في ما بعد ، واليوم تخطى هذا التفكير وسواه ؟ انني احلم باوديب جديد يخبرنا عنه سـوفوكـل كيف اقام شيبا ، ورغم الشيبين . في كرونشتات ، لاقى لينين وتروتسكي المأساة نفسها ، لكنهما حلاها : أقاما البروليتاريين ضد البروليتاريا . صحيح ان ديغول ذو حزم نادر ، انما ، هو انسان نابض ، وليس شخصية مسرحية .

قال لي ذات مساء : « ان لم يكن الأمر غير التصفية ، فاية حاجة كانت لهم مني ؟ لاغلاق كتاب كبير في التاريخ ، كانت تكفي الجمهورية الرابعة . وهو ، في مذكرات الحرب » ، يفصله خجل صامت ، عن الجوهر الاساس ، الذي لا يخطىء به قط . من هنا قوله لي ، خلال احداث الجزائر ، بعد عودته بايام : « تعرف الكولونيل لاشْرْوَا . انا لا اعرفه ارسله إلـيّ . وكان ذاك الكولونيل ، يومها ، احد الرؤساء الرئيسيين في قسم السيكولوجيا ، ونوعاً من وزير الاعلام المحلي ، وذا مؤتمرات صحافية لافتة . وما هي حتى كان في ماتينيون . وها الجنرال يصغي اليه ، ثم ينهي لقاءه معه بجملة يتيمة :

ـ عظيم . انما ، من الآن ، يا لاشْرْوَا ، افهم جيـداً ان فرنسا لا يدافع عنها ضد ديغول » .

وباشارة من هذا الأخير ، كان الكولونيل خارج الغرفـة ، فالتفت الـيّ الجنرال :

ـ حين تكلمت في الجزائر ، فهم كل واحد ان فرنسا هذه المرة ، هي التي تتكلم . وبعد صمت وجيز اردف :

ـ ما أردناه ـ ولماذا ، بيني وبينك ، وحدنا ، لا نسميه باسمه الحقيقي : العظمة ـ لكنه انتهى . آه فرنسا ! لها بعد أن تدهش العالم ، إنما لاحقاً . وستحول في كل شيء . وستفاوض الجميع : الاميركان والروس ، والالمان والشيوعيين . ولعلها بدأت ، ويمكنها الاستمرار ، الا اذا طرأ حدث مفاجىء ، لا تنتظره فرنسا ولا يتوقعه الآخرون . فهل يستمر ذلك ؟ لا أتوقع . وسترون . قد يشل البرلمانيون كل تحرك ، لكنهم لا يجدون التحرك . كانت فرنسا نهضت ضد البرلمانية ، وستنقض عليها وتصارعها ، كما ، تماماً ، حين حاولت الحصول على قبول بصفقة المصفحات .

ـ لكن هتلر مات .

ـ البلاد اختارت السرطان . ما استطيع ، بعد ، لها ؟

لم يرض يوماً بالخلط بين البلاد والسياسيين . لكنه ، هنا ، قال : البلاد ، ولم يقل : السياسيين .

العظمة انتهت ؟ ها هو عمر فرنسا على أساس الايمان . وليس للايمان غير معنى ديني . وإلا فكيف استطاع القديس مارتان الهنغاري ان يؤنجل مقاطعاتنا اللوارية ؟ وكيف استطاع الانجيليون الايرلنديون ان يؤنجلوا المانيا ؟ لم يكن يكفيه إيمانه بفرنسا ، ليكون الجنرال ديغول ، ولكنه ، ما كان بدونها ، ليكون غير منتصر دخيل بين الحقيقيين ، أو منكسر على بعض بطولة . صحيح ان نابوليون ، مهزوماً ، انهار تحت انتصاراته

السابقة ، لكنه مسكون بذاته ، لا بفرنسا . من هنا ، ايجادي في الجنرال ما سميته برئيس رهبانية . فإذا تخلت عنه فرنسا ، راح يجوب وحدته الميروفنجية فوق كليرفو ، دون ان يمر بباله الانحياز نحو خدمة الامير التركي . فعلاقته مع فرنسا ، لم تكن علاقة بسيطة . ها هو ، بالأمس ، يقول للصحافيين : « انا كنت فرنسا » . وكان يحكي عن الماضي . وها هو يقول لتشرشل : « لو لم اكن فرنسا ، ما دوري هنا ، في مكتبك » ؟

بعد ندائه الشهير ، لم يكن احد مؤمناً بأنه كان ، حقاً ، فرنسا ، حتى هو نفسه . لكنه قرر ان يكونه . وحين قال للفرنسيين المسحوقين ، وللعالم المدهوش : « فرنسا موجودة » ، من الآه كان يتجاسر على هذا القول؟ سياسيو الجمهورية الثالثة ، لم يكونوا يؤمنون به . والمارشال بيتان كان حامياً للاطلال ، لكن حمايته ما كانت لتغني ان فرنسا وجدت بقدر ما ان فرنسا لم تعد موجودة . من هنا ، شعور الجنرال بأن احتضار فرنسا لم ينشأ من ضعف مبررات الايمان بها : الهزيمة ، الديموغرافيا ، الصناعة ، ... بل من عقم الايمان بأي شيء كان . وذات يوم ، قال لي : « حتى لو كانت أكاذيب ، جميع المبررات التي تصوغها الشيوعية للروس كي يؤمنوا بروسيا ، فالشيوعية ضرورية لروسيا لأنها تصوغ مبررات » .

في الاطار نفسه ، سألني نهرو : « اليس من الضروري ، في آن معاً ، ان تكون أرجلنا على الأرض ، والا تبقى رؤوسنا على مستوى الارض ؟ » ان كلمة « عظمة » ، التي استعملها الجنرال غير مرة ، والتي استعادها آخرون بعده ، معه او ضده ، انتهت الى معنى الأبهة ، وتحولت تعبيراً مسرحياً من التاريخ . ولكن

مجلس الوزراء هذا ، ليس في فرساي ، وفكرة العظمة عند الجنرال ، غير منفصلة عن الزهد ، كما لاحظ زوار الايليزيه .

ذات يوم ، همس لي الشاه : حين التقيت الجنرال ، مرت اولى ، في طهران ، كنت يافعاً . سألته نصيحة ، فأجابني : « ستعرض عليك حذاقات كثيرة . ارفضها جميعها . وخذ مني عرضاً واحداً تعمل به : « ضع كل طاقتك لتبقى حراً » . وغالباً ما ردد عنه قوله : « ان تكون كبيراً ، يعني ان تحتمل صراعات كثيرة » . وكان يردد لي : العظمة طريق نحو هدف لا نعرفه سلفاً » .

وكم مرة كرر قوله : « حين تدلهم الأمور وتتعقد ، وتريدون اخذ القرار ، انظروا الى القمم ، انها بدون تعقيد » . وعلى عكس ما يظن اصدقاؤه وخاصة خصومه ، ليست العظمة ميداناً يظن نفسه امتلكه ، بل ميدان يخدمه لكي يعيد له ذلك الميدان الخدمة نفسها . هكذا ، كان القديس برنار في خدمة المسيح ، وكان ينتظره كثيراً . العظمة عند الجنرال ، كان وحده ، انما لم يكن فيها وحيداً .

سألني :

- وماذا سأفعل في ذهابي الى جادة بروتوري ؟ ربما لي رابط مع الشقاء ، لا مع هذا العالم الجميل .

- بل مع التحرير ، ومع عشر سنوات من قيامة فرنسا .

- ان ما يجري ليس الشقاء . ولن يمكنني ، للمرة الثالثة ، الامساك بفرنسا من شعرها في اللحظات الأخيرة .

ـ الا تظن انك ، في انعزالك الى كولومبي ، ستصبح دون حزم مباشر ؟

ـ يعني . . . لن اخرج عن صمتي الا حين يصير الوطن مهدداً فعلاً . يجب ان يعلم الجميع ـ وهنا اتكل في ذلك عليك ـ انني غريب وبعيد عما يجري ، بل هو لا يعنيني في شيء . ليس هذا ما أردته ، بل شيء آخر . لا مأخذ لي على احد . المأخذ ضعف . لكن الصفحة طويت . ومرة اخرى ، سيصار الى متابعة مراحل الآخرين على الخارطة .

أحسست ان غياب قدر كبيرة ، تهمة لا يوجهها الى اخلافه ، بل الى العالم اجمع . ثم عاد الى الشرح :

ـ الرئيس نيكسون قطف تصفيقاً كثيراً ، لأن آسيا ما زالت تؤمن بالسلم الممكن . لكنها لم تنته بعد من الأحزان . فالهدف الكبير نفسه طويل . من هنا ، لا اعتقد ان للولايات المتحدة ـ رغم قوتها ـ سياسة طويلة المدى . رغبتها ، وقد تصلها ، ان تنفصل عن اوروبا . وسترى . بينما روسيا ، تريد كسب الوقت . على أن فرنسا ، لم تعد ذات اهداف . وأنا لا اكتب لمن سيقرأونني . ما زال الوقت باكراً عليهم . غداً بعد موتي ، ستشهدون عودة الاحزاب ونظامها البائس ، لكنها في النهاية ، سيعانق بعضها بعضاً .

ـ قلت لي يوم جاء فوستر دولس : « لن يكون ثمة غرب » . ليس ضرورياً ان تكون اوروبا هي الغرب ، ولكن فلتحاول ان تكون هي ضد الغرب .

ـ ومتى الفرنسيون فهموا فوستر دولس ؟ كانوا معي

وأشاحوا . ليسوا مطلقاً مع الآخرين . . .

الآخرون . . . حين كان تروتسكي يذكر ستالين ، يسميه « الآخر » . ذات يوم ، كنا نتحدث وحدنا ، أنا وتروتسكي ، في رويان ، داخل بيته الكان يعج بالمناصرين ، وعلى بيته كدسات الصحف . انما هنا ، لا تأتي الوحدة من كوننا وحدنا . لذا ، اظنني فهمت تعب الجنرال الممزوج بهدوئه المشع . لكنني لم اتوصل بعد الى معرفة مصدر هذا التعب . اتذكر جلسات مجلس الوزراء التي عقبت اتفاقات ايفيان ، وكان المفاوضون ختموا تقاريرهم . كان من عادة الجنرال أن يبدأ بإعطاء الكلام الى اصغر الوزراء سناً . لكنه عبر من اليمين الى اليسار ، داعياً إياي الى الكلام ،ولم تكن تلك صدفة ، فقلت ان التعويض على فرنسيي الجزائر يكلف اقل من حرب طويلة ، انما المطلوب ، قبلئذ ، معرفة ما اذا كان حضور فرنسا في العالم ، مؤاتياً لهذه الحرب .

دافع ميشال دوبريه في حماس ، عن وجهة نظره ، فيما جاك سوستيل دافع بمرارة . فهذه المرة ، ليس الموضوع عبور الشانزيليزيه ، بل لعبة رئيسية تمر تحت طاولة اللاعبين . تكلمنا ، في حضور الجنرال الصامت ، منفصلين ، حتى اذا انتهينا ، بعد بحث ساعتين ، قال الجنرال :

ـ ان مصير فرنسا لا يتوافق حتماً مع مصالح فرنسيي الجزائر .

اذن ، كانت انتهت حرب الجزائر ، لتبدأ هجومات المنظمة الجزائرية .

ذات يوم ، اكد لي لويس مارتان شوفييه ان الجنرال قال له عام ١٩٥٨ : « ستترك الجزائر » . أما لي ، فقال : « ستبقى الجزائر فرنسية ، كما فرنسا بقيت رومانية . انما كونوا حذرين » . كان يريد ، بأي ثمن ، الوفاق ، وكان متأكداً من الحصول عليه . هل اخطأ ؟ كنت اعرف انه من الحديد الحامي على النار ، سيضرب حديد فرنسا ، فيعطيها الشكل الذي يريده لها . وكنت ، خلال مفاوضات ميلون ، سمعته يقول : « هذا لا يعجب ميشال دوبريه ؟ وهل تظنون أنه يعجبني انا » ؟

اذا كان الأمر كذلك ، لماذا اختار ان يحول الاستفتاء المرحلي الى خلاف نهائي ؟ جاءت العقبات المعيقة مشاريعه تحدد له حدود سلطته ازاء سلطة البلديات ، لكنه كان مهيأ لمعركة اخرى اضافية .

وكما لو ان أفكارنا الصامتة كانت تتحاكى ، سألني :

ـ هل تعلم بأن جراذين الأسواق ، ارتحلت الى رونجيس ؟

فوجئت بهذه الجراذين تهاجر الى رونجيس كما لو ان عبقرية الفئران علمتها هجرة الاسواق . هل هذا الرحيل ذكرني آخر احتفال للحكومة الانتقالية ، عند قوس النصر ؟ يومها ، راحت الطبول تقرع المارسيلياز ، وفر في الجو سرب حمام تفرق في الهواء . . .

ـ هل تقرأ الصحف ، سيدي الجنرال ؟

ـ أوه . . . العناوين الكبرى . . . قلت لك . . . لم تعد لي علاقة مع المتغيرات . . .

ـ حتى تلك التي تجري في العالم؟ بالامس ، كنت احاول فهم الحماس المحيط بك في البعيد . في كندا ، في رومانيا ، في أميركا اللاتينية . . . وفي شيراز ، لم يكونوا يحددون فرنسا على الخارطة . لم تجد بهم اية دعاية ، ولا حتى التي اشتعلت مع رحلة خروتشيف . اود ان اعرف ماذا عنيت لهم . كان بعضهم يهتف بحياة الشاه ، والبعض الآخر بحياة روستيم (شخصية فارسية قديمة) . اذن كنت تجسيداً لأحد ابطالهم القدامى . فماذا كان يعني الجنرال ديغول لناس يهتفون له ؟

ـ وهذا ما حصل في اندونيسيا اما في اميركا اللاتينية فالأمر مختلف . ولماذا لا يحبني الاسبانيون ؟ انهم يحبون دون كيشوت . لكن العالم تغير . وحتى في فرنسا ، ايام العز ، لم تكن تستطيع قطف الحب العام من الناس .

ـ سلفك ، في فرنسا كما في ايران ، ليس رجل سياسة . حتى ولا كليمانصو . ربما فيكتور هوغو . . .

ـ تعرف ؟ خصمي العالمي الوحيد : تان تان . نحن الصغار الذين يفرون من مكائد الكبار . تساعدني قامتي على الا يروني .

وارتاحت ضحكته الخفيفة على كتفيه . ذات يوم ، قال لي آينشتين حول غاندي : « إن مثال حياة متفوقة معنوياً ، مثال لا يقهر » .

في هذا المعنى ، حياة الجنرال ديغول ، الرفيعة ، ليست متفوقة معنوياً . فما الذي يجعل منه شخصية اسطورية ؟ ليس ضابطاً كبيراً ، ولا قديساً . وليس بطل حرب كما كان كليمنصو . سياسي كبير؟ ولكن ريشليو وبسمارك ليسا

اسطوريين ، وكبار السياسيين ليسوا اسطوريين . قلت له ان فرنسا ليست عقلانية ، ولا هو عقلاني . طبعاً ، ثمة في مجده غير عنصر عقلاني : فهو قائد التحرير ، والمنتصر المنفرد ، والمتمرد ، وصاحب قيامة الطاقة الوطنية ومن ثم قيامة الأمل ، حتى عام ١٩٥٨ . وهو الوحيد الكان جديراً بمواجهة الكارثة ، لا لأنه قادر على تحقيق « الوحدة الوطنية » على طريقة بوانكاريه او دوميرغ ، لكن لأنه كان يحمل فرنسا فيه . إنه نوعاً ، كما النبي ، طبعاً ، ثمة موهبته : فحين يخطب في الجمعيات الوطنية لبريطانيا العظمى او الولايات المتحدة ، يخطب كما فرنسا ، رؤساء الجمهورية الرابعة ربما ما كانوا خطبوا اسوأ ، انما ما كان الانصات اليهم احد .

حواره مع السياسيين كان دائماً حوار طرشان . والملكيون الكانوا يتصدون ، في كتاباتهم ، لدانتون ، ثم لسان جوست ، لم يكونوا جميعهم اغبياء ، وايديولوجياً اكثرهم كانت اقل ضبابية من ايديولوجيا سان جوست . لكنه ، هو ، لم يكن يتحدد بايديولوجياً ، بل بمقصلة ستراسبور ويفلوروس . وحين كان سياسي يصرح بـ « ما كان على الجنرال ان يفعل » ، لم يكن دائماً مخطئاً ، انما لم يكن رأيه مهماً ، تماماً كما الايديولوجيا الديغولية . وما كنا غالباً سمعناه عما يسمى غير مشروط (لأن الانصياع لستالين ومحاكمه كان مشروطاً ، هو هو غير العقلاني . ثمة اناقة الأعمال وهي غير أناقة الاقوال . منها نداؤه في ١٨ حزيران . ومنها تأثيره السحري في العالم ، تأثيراً غير سياسي . فمن يعرف اسماء خصوم الجنرال في المكسيك او شيراز ؟ وما تأثيرهم هناك طالما انهم هناك ، لا يعنون شيئاً ؟

هل واضح ما كان يعنيه الجنرال ديغول للفرنسيين اتباعه؟ وان يكن. انه واحد ممن لولاهم لكانت فرنسا غير ما هي. ولكن بالنسبة للآخرين؟ انه، بالنسبة للعالم الثالث جسد الاستقلال في المطلق، لا استقلال فرنسا وحدها. نظم فرنسا الامجاد الكان يحبها الكثير من الأمم. وهو كان المدافع عن افريقيا، وعن فيتنام. اعاد لفرنسا قوة مرتبطة به، وخاصة بضعفنا. استمعنا اليه ازاء الجبابرة، لأنه لم يكن يهدد احداً. انم لا شيء من هذا، ولا كل هذا، يفسر حماس ايران، وتقدير ماو، ولا حتى ذاك المعلم المكسيكي الذي قال لجوكس الآتي يزور متحفه الصغير: «الوداع، يا خادم البطل»، وطبعاً، لم يكن ذاك المعلم المكسيكي يدعو ديغول هكذا، لايمانه بسياسته، بل لأن الشخصية التي يصفها بالبطل، تنتمي الى الميدان الاسطوري. من هنا، ان فعله لا يتأتى من النتائج التي يبلغها، بل من الأحلام التي يجسدها. فبطل التاريخ، اخو بطل الرواية. والفارس البطل ليس فارساً المانياً مرتزقاً في خدمة فرنسا. مثلما الصلب يمثل رفعة التضحية. طبعاً، بطل التاريخ لا يفعل بهذا الوضوح، ومجده يقوم على العواطف التي يثيرها. من هنا، مجد الاسكندر بديهي (وهو اكبر غاز للعالم الغربي) لا مجد القيصر. لكن مقتل القيصر يجعله بطلاً. واذا انكسار نابوليون لا يلغي اسطوريته، فلان جزيرة سانت هيلين جعلت منه رفيق بروميتيه. وهو صار نابوليون حين لم يعد بونابارت، كما ميكالانج صار ميكالانج حين لم يعد السيد بووناروتي. والجنرال ديغول يصير الجنرال ديغول حين لا يعود شارل. فالشخصية ليست فرداً.

فيكتور هوغو ليس فكتور مجمّلاً . ربما الجنرال ، لهذا ، حين كان يذكر التاريخ ، يذكر نفسه بـ « ديغول » . وفي شيراز كما في المكسيك ، الجنرال شخصية اسطورية كما احدى شخصيات الكابيلاسيستينا في الفاتيكان . . . مراراً حدثني عنه ماو ، اكثر مما حدثني عن فرنسا . ذلك ان الجنرال لا يفصل عن القوى التي تبدو حوله كما حول قدر . اصدقاؤه وخصومه معاً ، يجدون فيه ساحراً ، كما جاندارك في محكمة روان .

اتذكر ، مرة اخرى ، آينشتاين اذ قال لي والكمان على كتفه : « لن يكون لكلمة تقدم اي معنى ، طالما ثمة بعد اطفال بؤساء » . وهذا ما وصفه دوستويفسكي بمأساوية اكثر : « اذا تغاضى العالم عن تعذيب طفل بريء ، استقيل من العالم » . وذات يوم كتبت ان اقل عمل بطولة ليس ذا غرابة ، أمام تعذيب طفل بريء . واعود بالذكرى الى وجه برنانوس حين قلت له عن معسكرات الإبادة : « ان الشيطان عاد الى العالم » . ومقاومتنا جابهت هذه المعسكرات . لكننا نحن الفرنسيين ، نجد ان الجيش الفرنسي حتى حين اندحر ، كان اقوى جيش في العالم منذ ١٩١٨ . فهل كانت القيامة على مستوى الكارثة ؟ لا تعابير عسكرية تترجم ذلك . انه نموذج انساني لا اسم له ، لكنه قد يلعب في التاريخ دوراً فردياً كما بطل او قديس . انه الرجل الذي يفر من القدر . وربما هذا هو تحديد الرجل الاسطوري .

وضع يده على الصفحة التي بلغها في كتابة مذكراته ، والتفت اليّ :

قل لي ، مالرو ، هل فائدة من كل هذا ؟

اصدقاؤه جميعهم كانوا توفّوا ، واكثر اصدقائي ، ثم اكمل :

ـ ولِمَ الكتابة ؟

ـ ولِمَ الحياة ؟ تعرف قول الباغافاد غيتا : « وما فائدة الحكم ، وما فائدة الفرح ، وما فائدة الحياة » ؟ . . .

تأملت لوحة الثلج أمامي ، وأردفت :

ـ سيدي الجنرال ، ولِمَ يجب ان تعني الحياة شيئاً ؟ في سنغافورة ، صادفت أحد اصدقائي القدامى . كان أدار التعليم في الهند الصينية ، وراح يجمع الفراشات منذ عرف انه سيموت كان يقول لي : « أحياناً ، أضع نفسي من وجهة نظر الفراشات » . لها ٢٦٠ مليون سنة ، ومعدّل حياة الفراشة شهران . تعرف مناطقها في ماليزيا ، وجزرها . إنها حتماً تتبادل في ما بينها أحاديث الفراشات : الزهرات غادرت الأشجار لتقدّم قرابين أو لتزيّن شعر الصبايا . البشر توافدوا واقتتلوا . تأكد ان الفراشات لا تؤمن من البشر إلا بالنساء لأنهن لا يقتتلن . وهي تقول في ما بينها انها هي هي فراشات منذ آلاف السنين ، بينما البشر ، قصصهم . . .

ـ وتاريخ البشر ؟

ـ قصصهم تبدو هذيانية وغير منطقية . إذا لم نعِ الكون مرتبطاً بالانسان ، تصير البشرية مغامرة بين مغامرات . يومها ذكرت لصديقي نصاً هندياً مقدساً ، فيه ، بعد المعركة ، « تأتي

الفراشات فتحطّ على المحاربين القتلى وعلى المنتصرين النائمين » .

ـ جميلة هذه . . . وأجد ان الفراشات يمكنها ترك في الحياة البشرية انقلابات . . لكنها لا تجيب عن السؤال الذي طرحته . بل هي تلغي السؤال .

ثم عاد الى السؤال بلهجة ساخرة تشوبها مرارة :

ـ ولماذا على الحياة ان يكون لها معنى ؟

فكرت كم من الناس في كم من الأجيال طرحوا السؤال نفسه في الغرف المظلمة داخل المدن المحرّمة أو تحت سماءٍ ضمت ملكات بابل وعبيد روما الكانوا يشاهدون أطفالهم يموتون .

ثم هز كتفيه خفية ، وسأل :

ـ وما جواب الفلاسفة عن ذلك ، منذ بدأوا يفكرون !

ـ ألا يخص السؤال ، بالحريّ ، الأديان . إن كان لا بدّ من معنى للحياة ، فلأنه وحده يمكن ان يعطي معنى للموت . تعرف عبارة أينشتاين : « أغرب . الأغرب ، ان يكون للعالم معنى » . إنما ليس ضرورياً ان معنى العالم هو معنى حياتنا . وإذا حضارتنا ليست الأولى تنكر خلود النفس ، فهي الأولى لا تقيم أهمية للنفس .

ـ لماذا تتكلم كمؤمن وأنت لست مؤمناً .

ـ رينان لم يكن غبياً .

ـ بلى ، أحياناً .

ظن انني مؤمن على طريقتي وأنا أجده غير المؤمن على طريقته . مرة قال لي : « ثمة تعزية دينية ، وليس من فكرة دينية » . وهذه فكرة لم يقلها حتى الهندوسيون الذين يعتقدون ان الفكر البشري يطوف تائهاً على سطح القداسة . لكنه يريد قول ما تقوله الهند . وتعزيته ، ليس قبر ابنته (وهو يهمه اد قال لي مرة : « سأدفن هنا مع آنَ ») ، بل ما يتفق لديه مع اضطراب النفس التي يخلط المكر بينها وبين اصطرابها . والتفت إليّ :

ـ الموت ، هل تعرف ما هو الموت ؟ .

ـ إله النوم . لم يهمني الموت يوماً . ولا همك أنت . كلانا ينتمي الى جماعة من الناس لا يهمّها أن تموت ولو قتلاً . مع أن علاقتي بالموت ليست ذات وضوح . حين اسندني الألماني الى الحدار في غراما ، لم أكن أفكر باعدامي . إنما في هجمة تلال بارير (أنت كنت على التلة المقابلة ، أظن . . .) كانت قذائف الهاون وصلتنا بصوتها الذي كأنه يبحث عنك . أحنينا رؤوسنا ، وأكملت أنا رواية النكات . فجأة ، كان دويّ قَصَفَ حزامي اثنين، مما يدل على خطورة الاصابة إذ كنت منبطحاً . عندها ، سكتُّ . لماذا ؟ ربما لأننا لا نتكلم مع الموت . . على ان الذكرى اللافتة في هذا المجال ، باقية من أسبانيا ، وأوجعني ان استذكرها في فيلمي . كانت طائرات الرصد الإيطالية تغير علينا . رحت أطلق النار ، فأصبت طائرة سمعت منها صرخات هلع . فجأة ، مرت غلة على عين البندقية التي اطلق منها النار على الإيطاليين الكانوا مستحكمين اطلاق النار علينا . ذلك أن النمل أصمّ ، وكذلك الناس في ناحية . إنما ، عند تصوير الفيلم ، كانت النملات تهرب تحت أصوات الانفجارات . ولم

ينجح المشهد إلا حين فتقت لأحد التقنيين فكرة ان يضع العسل على منظار البندقية . من هنا ، يقول الاسلام معصرناً القرآن : هل الحشرة التي تدهسها سيّارة على الطريق ، يمكنها وعي المحرك ؟ .

هنا قفزت قطة رمادية الى المكتب . عجبت من أين وصلت ، والباب موصد . . . فقال لي الجنرال وهدباه محنيان :

ـ هل تعلم ان في مبنى الأمم المتحدة قطة سوداء لا يجسر أحد على طردها ؟ حين يحتدم المندوبون في الكلام على مصير العالم ، تمر لتعيد الأمور الى نصابها .

وكأن الهرة احست بالموضوع ، فتقدمت منه . وسألتُه :

ـ سيّدي الجنرال ، هل تحسن ألا تفعل شيئاً ؟

ـ سَل القطة . نقوم بنزهات معاً . ليس من يفرض على نفسه نظام فراغ . لكن هذا الفراغ ضروري . الحياة ليست العمل فقط . فالعمل المتواصل يؤدي الى الجنون ، تذكّر : من كان من مساعديك دائم التفكير بعمله ، لم يكن هو الأنجح .

وراح يداعب القطة ، فسألته :

ـ أحد كبار المفكرين الذين عرفتهم ، مات بالسرطان وهو يقول لبولان : « ما أغرب الموت » . انما الأصعب ، موت من نحبّ . . .

استدار فوراً صوب مقبرة كولومبي ، وهي لا تبدو جيداً من مكتبه . كان الثلج يتساقط وراءه . اعتقد ان ابنته مدفونة فوق . بعد برهة صمت ، أجاب :

ـ موت من نحبّ ، نفكر فيه بعد مرور فترة ، بشعور عذب لا يفسّر . . .

لم يكن حدثني عنها قط ، إلا تلميحاً . منذ كان في لندن . ويتمشى بها ممسكاً يدها ، كان يفكر إن لم يكن ولد في مواجهة الشقاء . ثم اردف لي :

ـ ليس صحيحاً ان أعمق التجارب هي التي تهيمن على حياتنا . ربما في العمل . أما خارجه فلا .

ـ بدأت تجربة العودة الى الأرض تّمحي من ذاكرتي ، وكنت عرفتها بعد سبأ ، ثم بعد شبح إعدامي خلال المقاومة .

ـ دائمًا ، الشقاء الكبير يمّحي. إنما ، ما نفكر في الموت . . . أهمية الموت أنه يجعلنا نفكر في الحياة .

ـ سيّدي الجنرال ، تعرف مثلي العبارة الشهيرة : الحياة ، مجموعة القوى التي تجابه الموت . إذن فالموت روح العالم ، لكنه يعني لي الثرثرة . . ثمة مشكلة موتنا نحن ، إنما هي موجودة لأننا أحياء . وهذه قد لا تكون حتمًا مشكلة الموت . أما ازاء الإيمان ، فالأمر مختلف .

وكما كل مرة أحدثه عن الإيمان ـ وهو يعني إيمانه هو ـ يتنفس بحركة من يطرد الذباب .

ـ الهرة الصغيرة تلهو ، والكبيرة تتأمّل .

هممت بمداعبة الهرة على المكتب . . . ثم أجبت :

ـ أو انها توحي بذلك . . . الأطفال ، الرجال يتأملون ، أو

يوحون بذلك . . أحد اصدقائي ، وهو محلل نفساني ، يقول لي دائمًا : « الحياة ، كرجل في المترو ، يحمل حقيبة في كل يد . وهو مهتاج ، ويترقب كل حركة للوصول سريعاً ، إنما الى أي محطة أخيرة ؟ الى الموت . ومع هذا ، يتمسك جداً بالحقيبتين » . . .

ـ ما عمر صديقك ؟ رأيه ليس نابعاً من شخص فتيّ .

ـ حوالى الخمسة والستين عاماً .

ـ ما يزال فتياً . . ومع هذا لا يعلّق كبير أهمية على الطموح . والحقيبتان ممتلئتان أمراضاً . الأمر يفجأ . . .

ـ وتدخل فيه رغبة ان يكون الانسان معشوقاً . . هل لاحظت انها ليست واحدة من الخطايا الأصلية ؟

ـ التكبر والرغبة تتيحان إيجادها . وما همّ . طوال عصور ، تأمل الإنسان فكرة أن الموت يسلّط على الحياة ، فينعزل الانسان ، في رياضة روحية قد تدوم في الدير خمسين عاماً . . منذ سنوات طوال ، والسؤال ممنوع طرحه . حيثما تمحي الديانة ، يعيش العلم في العصور ، والعالم يعيش يوماً فيوماً . . صورة الحقيبتين لافتة ، لكن الحياة ليست أن يعيش الانسان مسكوناً بهاجس الحقيبتين ، بل بأن يتحرر منهما . . . ربما ، لا دائمًا ، لأنهما تتيحان عدم التفكير بأيّ أمر آخر ، وخاصة بالأهمّ . هل نحملهما لما فيهما ؟ أو لأننا نحمل فيهما ما يساعدنا على تناسي السفر ؟ اذا استثنينا الطموح ، ماذا يبقى فيهما ؟ انهما ممتلئتان أحاسيس الأنيات . بعضهم يضيف عليهما العبقرية . ويأتي الموت فيتولى تهدئة هذا القلق .

ـ أو يتولّى تحويله .

ـ طبعاً . . . لِمَ لا ؟

ـ لا يمكن لأيّ كان أن يضع فرنسا في حقائبه .

ـ أعدتُ لفرنسا ما كانت أعطتني .

ـ الثلج ما زال ينهمر في صمت . . هز كتفيه وأكمل :

ـ ما الفرار من الحقائب ؟

ـ العيش في الحاضر كما أنت تعيش في التاريخ ؟ .

ـ التاريخ يبرر الحياة ، ولا يشبهها .

. كما الرسم .

ـ ستالين قال لي عبارة مهمة ذكرتها لك : « في النهاية ، ليس سوى الموت رابح » . . ومع هذا ، ثمة التأمل .

كان قال لي هذه العبارة ، ولم أفهمها سوى اليوم . لكن حياته اليوم توجهها مذكراته . قلت له :

ـ الكتابة أيضاً مخدّر مهم . الحقائب ملأى صفحات بيضاء تنتظر ملأها . حين لا يدخل أي تفوّق ، في اللعبة ، فالشعور الأخص والأقوى لدى الناس ، يصير : كيف العمل لعدم التفكير في الأساسي ؟ وحين تكون أنت المحور ، مباشرة أو مداورة ، تعود الى البال عبارة نابوليون : « والآن ، اكتب الأمور العظيمة التي عشناها معاً » .

ـ كان عنده حظ .

وكمل بصوت غير ساخر ، مستعيداً بعض ماضٍ :

ـ كان يظن ان الخلود متفق معه ، مع ما كان يفكر به عن عمله ، مما يسمّيه المجد . نعود الى الكلام على هذا . فالكتابة تتيح نسيان الخوف . وهذا مهم .

ـ من الأكيد ان روما أوجدت أول حضارة ملحدة . انما كانت موسوسة . حين كان شيشرون ، أو سواه ، يتكلم على الحمامات المقدسة ، كان يقول انه لا يحب هذه المجنحات الموظفة .

ـ موسوسة كما جميع الملحدين . لا اكثر . بم كان يؤمن القيصر ؟ ليس في كل كتاباته ما يدلنا على ذلك ، ولا في كل ما كتب عنه ، وهو كثير .

ـ لذلك اجد مهمّا ان تكتب مذكراتك . وإلاّ ، ألا تعتقد ان آخرين سيكتبونها ؟ . تذكر ما قيل لسقراط : « وما ينفعك يا سقراط ان تعزف على القيثارة ، ما دمت ستموت ؟ ويجيب سقراط : « ان أعزف على القيثارة » وثمة جواب ثانٍ . خذ ما بدأ يحصل حول أيار ، تجد كم ضروري جدّاً ما كتبه بونابرت بنفسه عما حصل من لغط حول فترة سانت هيلين . ثم ، حين ستكتب ـ سواء كتبتَ بالـ « أنا » أو بصيغة « ديغول » ـ لن يقرأ القارىء شهادتكَ كما سيقرأ الحدث بقلم آخر . هنا الآية معكوسة . فالقلم الآخر ، سيزوّق ، كما الروائي يؤلّف ، فيما أنت تشهد ولو اعتقد القارىء انك مخطىء . وأعود الى التشديد على ان كتابة المذكرات عملية لا تعوّض .. مرة قلت لي : « الفرنسيون يرغبون معرفة ما أفكر أنا بكل هذا » . ان إعادة

تنظيم فرنسا ، كما المقاومة ، كانت مجموعة أحداث ، ولم تكن أحلاماً. لكن الحلفاء ، وخاصة الاميركيين ، كان يمكنهم اعتبار المقاومة بعثة اجنبية . لكنك انت حوّلتها أمراً آخر ، كما حولت اعادة تنظيم فرنسا . كان يكفي لخطاب ١٨ حزيران بضعة أيام ، ليعني شيئاً آخر غير النداء إلى خلق بعثة أجنبية . كنت تقول : « ثمة قوى كبرى لم تفعل بعد ، سنجيّش العدد الكافي من الطائرات والدبابات ، وسننتصر للأسباب نفسها التي جعلتنا ننكسر » . كان ذلك قوياً جداً ، إنما لم يتحدث عنه أحد ، حتى في جلسة مجلس الوزراء الذي قرر عام ١٩٤٠ ان ينزل هيريوت في لندن . . . قوة انبياء إسرائيل ، إنهم اعلنوا الحقيقة فيما كان الجميع ضدّها . وقوة خطاباتك في حزيران وما تلاه ، نابعة من الرؤية النبوئية نفسها : « حين ستقومون من بين الأموات » .

ـ الأشياء الرئيسية التي قيلت للانسانية ، كانت دائماً أشياء بسيطة . . . الديانات مثلاً . . . وما تحدثه ، لا يمكن التكهن به .

هل يكون للعلاقة بين رجلين وحدهما ، في هذه الغرفة المغلقة ، رغم وساعة المنظر في الخارج ، أن تثير توارد أفكار بهذه الدقة ؟ ذات يوم ، كان قال لي عن المقاومة : « كرست لها كل شيء . كانت هي فرنسا . فالى أي حدّ تبنّتها فرنسا » ؟ .

قلت له :

ـ لماذا خطاباتك في الحرب لا تعطي أهمية اكبر للمقاومة في العاصمة ؟ هل كنت تظن ان سياسيين ، آجلاً أم عاجلاً ، سيحاولون الانقلاب عليك ؟ .

ـ بلى . . . أعطيتها أهمية كبيرة . . .

ـ عام ١٩٤٤ أو ١٩٤٥ ، حين سَألك صحافي عن مصدر أسلحة الفيلق الأولَ ، أجبته : « من الأفريقيين الهاربين من الثلج ، ومن الاميركيين » . مع أنها كانت أيضاً مما أخذناه من الألمان ، ولا يزال قسم كبير منها في متحف ستراسبورغ .

ـ أعتقد انني ، وقتها ، لم أكن أعرف ذلك . كان يجب أن أعرفه . . .

غالباً ما تكون المسافة التي تفصله عن محدّثه ، فاصلاً له إلى شقّين منفصمين ، فهو يقول : « كان يجب ان اعرفه » ، « كما يكتب « ديغول » عقّبت على كلامه :

ـ حدث شيء رائع في الأشهر الأخيرة من المقاومة . وعندها أدركنا ما كان ينتظرنا ، فبعد توقيف جان مولان ، شعر المقاومون والمقاومات بأنهم يحاربون في وجه جحيم هائل .

تراه كان يخشى من غش في صفوف المقاومة ، فلم يكن يؤمّن إلاّ للموثوقات ؟ هل كان يعتقد ان المقاومة وحدها لا يمكنها تأمين استمرارية فرنسا ؟ كان يقول : « أسمع صوت شعبي عميقاً ، كما أسمع ضجيج البحر » . وهو تكلّم مراراً على كهوف الغستابو وعلى أعمدة تنفيذ الإعدام . ومرة رأيت ، وكنت معه ، في « الأنفاليد » ، عموداً ، مزّقته رصاصات الألمان ، أعادنا الى أصعب لحظات المقاومة . تطلّع ، مثلي ، إليه ، لكنه راح يفكّر بالمسافة التي بين أدغال المقاومة والبعثات الأجنبية . قال لي : « المقاومة عرفت عدة دواعٍ . وأظن فرنسا تعرف أنني لم أناهض سياسة باسم أخرى ، ولاً حضارة مهتاجة

باسم حضارتنا ، ولا حتى باسم المسيحية . كل ما فعلته : المقاومة باسم فرنسا . ولن يُنسَى انني احتويت الجميع ، وإلا لكنت رئيس حزب في المنفى . ومع هـذا ، يتهمني بعض المساكين باحتواء فرنسا . . مساكين . . . » .

أحسسته اليوم مسكوناً بهاجس المرحلة التي عادت فرنسا فيها فرنسا ، إذ تمر اليوم ساعات عصيبة تهدّد ، بنضارة تلك المرحلة . هل تكون العشر السنوات الاخيرة مجرد قفزةٍ أخيرة ؟ أفكر بعلماء البيولوجيا الكانوا مجتمعين في سان فرنسيسكو ليشهدوا الاختبار الذي سيجعل الحياة تولد من المادة : نجحوا في المرحلة الأولى ، ثم مرّوا بلحظة ارتعاشة حين بدت الحياة متردّدة في الأنبثاق من الجماد ، وأخيراً ، كان الفشل الذريع .

كان اهرنبور ، وهو من أشد كارهي الجنرال ، يقول : « في موسكو ، بدت فرنسا تتبعه على خطوات ثلاث ، كما الزوجات المسلمات ». تراها لم تعد في حاجة إليه اذ لم تعد تريد شيئاً ؟ « بير حكيم ليست ، طبعاً أوسترليتز . والذين اقتتلوا فيها يشهدون » . هكذا تفكيره بذلك ، إنما أحياناً لا دائمًا . . . « انا العجوز في العجوز والبحر لهمنغواي ، ، لم أعد إلاّ بهيكل عظمي » .

لكن عنده اليوم اللامبالاة الغريبة تجاه ما انجزه بالأمس . . . « رجال نهتف لهم ونهلّل ، نجدهم يرمون أحمالهم فجأة » . بمن تراه يفكر ؟ بيوليوس قيصر ؟ ربما . بسان جوست ؟ لا يعرفه جيداً ، ولا يحبه . . . فهل يمكن تحليل اللامبالاة تجاه الانجازات ـ وهي عند امثاله مبالاة تجاه كل شيء ـ أم انها وليدة

شعور اساسي ناجم عن تبريرات ؟ هكذا تجيب كيمياء الدماغ ، حسب ماكس توريس . ترى ، قبل رحيله ، سمع صوت الموت مؤذّناً ؟ مع انني ، وراء « الهيكل العظمي » الذي سماه ، الح تعلقاً لديه .

يوماً قال لي ، في إخلاص واضح : « أعترف انك غلبتني » . وفي اليوم التالي ، فعل ما كان قرّره قبل محادثتنا . لكنه يجمع خطاباته ، ويجيب عن رسائل النساء اللواتي يسألنه ، فيسألهنّ ، عن صلواتهن ، وتعليماته الى السيدة ديغول واضحة في هذا الشأن ، عند حصول أي حادث . فهو يتكلم على الموت في لامبالاة عظيمة ، حتى ان احدهم ، وكان يعرفه جيداً ، قال لي : « إنه يحزم حقائبه استعداداً » .

كان يؤمن بعزلته . ولم أكن أوافقه هذا الإيمان . فما يكتبه ، تتمة لحياته ، ومجابهة لوحدته التي يمارسها بعد ظهر كل يوم في رفقة هرّته . يقول : « بعيداً يمتدّ نظري ، ولا يقع على بيت واحد . أتمشى ساعات طويلة ، ولا أصادف أحداً » . تماماً كما قبله القديس برنار جاب كليرفو تلك القاحلة الشتائية . مرة ، قال لي عبارة فاجأتني انما تعبّر عن كوامنه ، وتلمح الى سان جوست : « كان القديس برنار تمثالاً . ترى كان له قلب ينبض ؟ » .

في الطريق الى كليرفو ، بستاني يجتاز المعبر ، وأبعد منه بقليل ، عربة خيل مهجورة . ثمة ، عند الجنرال ديغول ، ميدان لا هو روماني ، ولا يذكر بواشنطن ، ولا بميادين رجال الدين المنفردين . رفضه هو الأساس . ومزاجه ، لا يحدّده بقوله : لا ، بل بكونه لا يكون مرتاحاً إلا حين يقول : لا .

دخل عليه أحدهم ، حاملاً رزمة ، فتحها ، انها الصفحات المطبوعة على الآلة الكاتبة ، من مخطوطته : « خُطب ورسائل » .

ـ هل هو الجزء الأول .

ـ نعم . الحرب .

غداً ، في مثل هذه الساعة ، سيكون في هذه الغرفة نفسها ، وسيستعيد نظريته عن حرب الثلاثين عاماً ، وكان أوجدها عام ١٩١٤ : « فوش ، كليمنصو ، ديغول .. الخط نفسه » وكذلك : « إن امتنا تواجه خطر الموت » . وغداة تدمير الاسطول الفرنسي في المرسى الكبير أمام الأسطول الأنكليزي ، يلعلع صوته : « باسم الفرنسيين الما زالوا احراراً في التصرف وفق شرفهم ومصلحة فرنسا ، أعلن انهم ، مرة اخيرة ، اتخذوا خيارهم القاسي : انهم اختاروا القتال » . وكذلك : « بين الجنود المقاتلين ، نادراً ما يسمع العالم بعد خطوات جنودنا البعيدة » . وسيقلب الصفحة ، ليقرأ ، ويضيف هنا فاصلة ، هناك نقطة ... « فرنسا التي تحارب ، هي حكماً فرنسا » ... ووثاق الوحدة الفرنسية ، هو ، فقط ، دم الفرنسيين الذين رفضوا ان يعرفوا ، ، كما قال كورناي ، عار الموت دون شرف القتال » ... وكذلك سيقرأ : « جيشنا في افريقيا ، صدىء السلاح انما معنوياته قوية » . كما سيجد ظل هتلر منتحراً ، وفيشي الذي صار بلا ظل ، : « منذ اعلنت الخيانة أن العار عذر لتجنب العذاب ... هؤلاء الواقعيون الذين يجهلون الواقع ... فيشي الممسك بيدي فرنسا فيما العدو يذبحها .. الأغطية التي يرميها الأعداء والخونة على شهدائنا .. أفواه الكانوا

يدّعون حكم بلادنا ، والتي لا تنفتح إلا لتأمر بلادنا بالتمرّغ في الوحل » . . .

وسوف تتتالى الصفحات ، مدونة ما كان يحصل كل يوم : اعظم انتصار في العالم ، هو انتصار الذين لم يستسلموا . . . أو « في التغيرات العظيمة ، لا قيمة أو برّوز أو حساب إلا للّذين يعرفون كيف يفكرون ويريدون ويتصرفـون وفق ايقاع الأحداث العظيمة » .

وسـوف يتذكّـر ، أحيانـاً ، التاريـخ الذي صنعـه ، كـما ميكالانج يتذكر الكابيلاسيستينا ، واحياناً اخرى كما تعود الى البال ذكرى صراع طويل مع رواق من الظلال طويل . وستحين ساعة الغداء .

وها هي حانت . وبادرني :

ـ أما زلت تقرأ ؟

فيما هو يستقبل سفيرنا في لندن ، جوفروا ده كورسيل ، وهو كان مرافقه العسكري فيها ، رحت أبحث مع مرافقه العسكري اليوم والسيدة ديغول . أحسستني ما عدت نافراً لديها . تراها لأنني أرافق الجنرال في عزلته ، أم لأن حدسها النسائي دلّها على عمق علاقتي بالجنرال ، أم لأنني اليوم في كولومبي ، أم لأنها تعرف ما توحيه اليّ من أعجاب (تولـد خاصـة بعد محـاولة الاغتيال في كالامار ، حين ترجلت من السيارة صامتة ، نافضة كسر الزجاج عن كتفها ، ومعيدة قبعتها الى مكانها) ؟ وها هي اليوم أراها صبية وألمح الوجه الذي احبه الكابتن ديغول . كانت في الأمس القريب تعبى ، وها هي اليوم مرتاحة في جوّ قريب

من هدوء الجنرال وصفائه . تتحدث عن قصر الاليزيه كما عن معتقل :

ـ كنت دائمًا اتساءل كيف استطاع احتمال ذلك كل هذه المدة .

ومن خلال تعابير كثيرة لها (آه . . . الجنرال يجب هذا . . أو . . . يقول هذا) تبدو تحبه في أنوثة دافئة .

على الطاولة ، لعبة الصبر ذات الاسلاك الحديدية . نظرت اليها ثم إلينا :

ـ يتدرب عليها أيام الآحاد ، ليتغلب على أحفاده .

تأملت هذه الأسلاك التي يلاعبها الجنرال .

الأسبوع الماضي ، وصلتني هذه الرسالة بلا توقيع :

« إذن هو هذا ، الجنرال ديغول : حقارة في الفكر ، حقارة في الروح وحقارة في القلب! ومن هنا : قصر في الرؤيا ، مغالطة تاريخية ، وتعمية في العبقرية اللاتينية . ان فرنسا (لا فرنساه هو) فرنسا المضللة التي شهدت ، معه وبواسطته ، هزيمة ١٩٤٠ تتحول انتصاراً ، والتخلي عن الحكم يتحول مجداً ، والخيانة تتحول شرفاً والجهل يتحول مدرسة . . فرنسا التي شهدت جيشها مهزوماً وعدالتها ممتهنة ، وحضارتها ممزقة وشعبها مكروهاً . . . فرنسا التي قادها الى الضلال والفوضى واليأس بالمسافة الرهيبة بين أقواله الطنانة والحقيقة . . فرنسا التي شهدت ابناءها ينقلبون عليها ، في ايديهم السكاكين ، فيما بقي هذا العجوز يتفرج عليها ساخراً . . فرنسا التي طردته ، كانت ما

تزال متمسكة بالأمل . . .

ولكانت فرنسا غفرت كل شيء ، لو وجدت لديه عظمة ، أو نفساً ملحمياً أو جنوناً . لكنها لا تجد في « قائدها » سوى ثعبان حقير الدماغ ، سوى رجل لا عملاق فيه سوى ادعائه ، وعناده التعيس . . . إن فرنسا اليوم تتأمل هذا المدّعي الجاهل ، بهمومه الرئاسية ، ورحلاته الى الضواحي ، وتعلقه بالمال ، والجوائز المسلكية أو الشرفية التي يمنحها لمساعديه .

لذلك ، ووعياً منها أن هذا المصاب بمرض العظمة ، حقير ، تنظر فرنسا اليوم ، ببعض القلق ، الى صدور هذه الكتب التي ستصب الزيت على العواطف شبه المطفأة ، التي ستزعج اميركا ، وتصيب روسيا بالخيبة . . . » .

أميركا وروسيا . . . مرة قال لي : « ولا مرة ، وجدت أمامي رجلاً يمثل حجم فرنسا » . وحده شكسبير عبّر عن الحقد الذي تثيره الأقدار الكبيرة ، التي ما زالت تثير اليوم الحدق لأنها كانت أثارت الحبّ : « الحقد على جاندارك أو على نابوليون » . . . وما زلنا نذكر الأغاني ضد بونابرت . « إذن . نابوليون ، ولن تعود إليك ماري لويز » ؟ أو ضد لويس الرابع عشر : « دخل الجندي العجوز الى الضيعة ، وتزوج من المومس العجوز » ، أو الشتائم ضد يوليوس قيصر . وهي شبيهة بتلك الموجهة ضد الاسكندر . من هنا ، ان كاتب هذه الرسالة ، قد يقتل الجنرال ، لو كانت له الجرأة ، باسم البيتانية ، ناسياً هتلر ، والشيوعيون كانوا يقتلونه باسم البروليتاريا . فأعداء نابوليون لم يحتاجوا الى اعذار ليكرهوه . وكذلك ريشليو ولينين وكليمنصو . يتمون الى التاريخ ، إذن الى الحقد . وكان الجنرال سألني

بالأمس ببسمته المروّسة : « ألا تجد غريباً ان يكون الواحد مشجوباً (لا يَستعمل قط كلمة « مكروهاً » حين يتكلم على نفسه) لما فيه ولما ليس فيه » ؟

لما فيه . . .

أعترف انني لا أعرف الجنرال ديغول . مَن يعرف مَن ؟ تسمي « معرفة » تلك الإلفة مع ما للفرد من خصيصة فردية ، فلا يفاجئنا بعمل ولا نعرف أن نموقعه فيه . يضاف إليها ، وهم ما يضيفه النجاح . خطوة واحدة بعد ، وتصير معرفة الآخر هي معرفة ما يخبىء . يقول القول السائر : « لا رجال عظماء في نظر خدّامهم » . فهل هذه حقارة حقودة ، أم دعوة الى وحدة الوضع البشري ، إلى مشابهة عميقة تطغى على جميع التسلسلات ؟ في العصورالغابرة ، كانت تُستعمل عبارة « كشف القناع » في عصرنا ، يبدو ان البحث عن غير المعترف به ، أعمق من البحث عن غير الصالح للاعتراف به ، والبحث عن « الذي يفعل فينا دون علم منا » لا ينبع من المعرفة ، بل من خرافتنا : الطيران كما السير ، انوجادنا في جميع الأمكنة معاً ، إمكان امتلاك كل شيء ، وعدم الموت .

والسلالات الكبرى ، وعت المجتمع مهزلة ، والانسان هازلاً . من هنا ان النموذج الفرنسي نابع من حدة الذهن ، لكنه ينحو صوب التحديد أو التشويه . مع ان التفكير في ماكس أو ميري ، لا يثيرفيّ تحديدهما ، بل صورتهما الهزلية ، اكثر من مكانتهما . ذلك ان الرسم ليس عملية ذهنية ، بل نوع أدبي وفني . رسم الصورة ، تجميد صاحبها في الرسم . لكن رسامي

الوجوه ، لا يجمدون الصورة نفسها ، ولا يملكون الأدوات نفسها . كل كائن نبع لا ينضب ، لكن كل كائن يحدّد ظله حين يدخل في المساحة الشعاعية للعمل أو للعواطف ، كما يحدث لي عندما تطغى فكرة ، « زمان . . . » على فكرة « رأيت » .

حواري مع ماكس ، دونته ، لأنني أحسسته من الماضي . استمعت الى آرائه في الماركسية الفرويدية ، كما تخيلت آراء النفوس المرهفة عام ١٧٨٨ حول الطغاة ، وكما كنت استمع الى ميري يقول : «كان ذلك زمان البونزفو ، حين كانت موسيقى سنغافورة تطغى على أوامر قادة مصفحاتنا » . وقد يكون هذا هو التأثير الذي يمارسه عليّ رجال التاريخ . فتجبرتهم تتعلق بالانسان الجماعي ، من هنا أن تجربة الجنرال ديغول ليست من طبيعة تجربة ميري أو ماكس ، وتجربة ملاح الطائرة لا تختلط مع تجربة المسافرين ، لأن تلك فردانية . بينما عند الجنرال ، الفرد معدوم ، وأسلوبه الخفي مقصود لأن هذا الحذف يخلق أسلوباً قوياً . مع أنه فاوض كثيراً ، فهو لا يناقش . أحياناً يطلع فكرة باردة أو فرضية ، لكنه غالباً يؤكد أو يسأل . بينما عند نهرو ، الفرد ليس معدوماً بل محذوف ، بالتاريخ الذي صار عنوانه « زمان نهرو » . ومرّ الزمان على الهند .

غادر الجنرال غرفة اجتماعاته قائلاً لجوفروا ده كورسيل :

ـ في الواقع ، حرسنا القديم ، احبه ، إنما . . .

قاطعته السيدة ديغول :

ـ إنما بقي ولم يترك . . .

ـ إنما أريد ان يفهم الجميع بأن لا علاقة لي بما يفعله .

وقدم نبيذ البورتو . جدران البهو مغطاة برفوف الكتب . فوقها ، مصابيح صغيرة وصور فوتوغرافية للملوك ورؤساء دول حاكمين او متوفين او مخلوعين : تشان كاي تشك ، ايزنهاور وملكة انكلترا ، وكينيدي . حدّ نيكسون . ومعها لوحات قدمت اليه في الجزائر . ليس ما يرتبط بحياته هو : لا اثراً فنياً مبتاعاً . جهاز تلفزيون ، كنت رأيت آخر وانا امر في البهو الآخر .

انتقلنا الى المائدة . نفر صوته :

ـ وماذا يجري الآن ؟ هل تخرجان في هذه الايام ؟

تغير صوته . كأنما يريد يقول : استراحة . تماماً كما زمان الغداءات الخاصة في الإيليزيه . بعد خروجه من مكتبه الرئاسي ، حيث خارطة هائلة للكرة الارضية ، لا يتكلم في الامور الجدية . بصير يجيب بجملة موجزة او بهزة كتف من هنا ، ذهول جاراته اللواتي كن ينتظرن آراءه حول تاريخ العالم ، فيما هو يسألهن عن أخبار اطفالهن ، او عن رأيهن في آخر فيلم شاهدنه . لكن الجنرال خلق في كولومبي جواً لم أعرفه في الإيليزيه : جواً حميًا وعائلياً ، كما لو أنه يحس بنفسه سيد البيت .

روى السفير عن حفلة بارون ريديه ، وأتبعها بسلسلة نكات ، ختمها بقوله : « كل هذا سخيف لا قيمة له » . . . فقلت :

ـ ما الذ نهاية القرن الثامن عشر ، وهي موزعة بين كلمة امير لين في فيينا ، وكلمة مدام ده بومبادور في قصر فرساي . . .

فيينا ، يصل رسول حاملاً رسالة الى امبراطور النمسا : جل غرق في حفر برائير » ، وهي حفر بدون ماء ، ليجيب مير : « هيا . . . مداح آخر » . والكلمة الخصمة تعرفونها : بس الخامس عشر . . .

والتتمة تكون : « لويس الخامس عشر يتملق مدام ده مبادور » . لكن كلمة « يتملق » ليست من قاموس السيدة يغول :

ـ لويس الخامس عشر يداعب مدام ده بومبادور . فتأخذ يده ، وترفعها الى قلبها ، تبتسم قائلة : « هنا . . . هنا » . . .

عادت الهرة ، فسألت عن اسمها ، لتجيبني السيدة ديغول :

ـ كان لها اسم مميز . . . نسيته . . . الآن ، اسمها غري عري . . .

ذات يوم سألت الجنرال عن علاقاته بالقطط . فأجابني بعد تفكير : « لم تعد تخاف مني » .

وكانت جنفياف ديغول اخبرتني انه مرة سمع الأولاد يقولون ، في الغرفة المجاورة ، عن الميلاد التالي : « اذا اتى العم شارل ، نفرح كثيراً ، انما لا نعود نستطيع المزاح » .

سألت جوفروا ده كورسيل :

ـ هل قرأت آخر نظرية انكليزية عن آزنكورت ؟

ـ لا اظن . . .

ـ عن التقاليد ان النبالين الفرنسيين لم يستطيعوا استعمال

اقواسهم المتمددة من المطر والتي دون اغماد ، فيما الانكليزيون كانت معهم اغمادهم .

وسأل الجنرال :

ـ ولم يعد داك في التقاليد ؟

ـ تقول النظرية الجديدة ان اوروبا كانت عهدئذ مسرح فئران ، والانكليز وحدهم كانت عندهم اسراب قطط . وحاصرت جماعات من الفئران فيلقاً من الجيش الانكليزي ، لا خوفاً من القطط بل بسبب رائحتها . وانهالت على حبال الاقواس الفرنسية .

سأل الجنرال :

ـ والنبالون في آزنكورت كانوا يحاربون بالاقواس ام بالقذافات ؟

ـ بالاقواس في أحد الافلام . . . كل هذا غامض . لكن مؤرخاً مدققاً يمكنه التأكيد على وجود او عدم وجود جماعات القطط ، في قبطانيات من ١٢٠ قطة مصطنعة . . .

قالت السيدة ديغول :

ـ أساساً التوفيق بين قطتين ، أمر صعب . . .

فقلت :

ـ اطرف قصة عن القطط ـ ولم اعد اذكر ان كانت من فيلموران او من جان كوكتو او مني ـ هي هذه : « في زاوية حيث النار تتقد ، كان يجلس انكليزي وزوجته والقطة

السـوداء» . تطلعت هـذه الى الرجـل وقالت لـه : « زوجتـك خانتك » ، فتناول الرجل بندقية الصيد وقتل المرأة . فانسحبت القطة ،وذنبهـــاعلامة استفهام ، وهي تردد : « إني كذبت » .

قال الجنرال :

ـ اظن القصة منك . . . لكن قبطانيات الحيـوانات بقيت طويلاً ، بقطط او بدون قطط . . .

ـ تتذكر الرسالة التي تلقتها دائرة المحفوظات قبل سنوات ، وفيها شارل ده باتز ، أي دارتانيان ، قائد المطيرة ، يشكر الملك على تسميته اياه قائداً على كلابه ؟ حين لم تعد في اوروبا قطط ، ارسلت الى البابا غريغوار الأول قطة من الحبشة . وأصدر مجمع تحذيراً يفيد بان قداسته يهمل واجباته الجبريـة ليداعبهـا . . . وانني اتذكر قطة سوداء ممددة على مصيدة في « المدينة القديمة » من كونكارنو .

أحد جدران الغرفة ، العـاري منذ عشـرين سنة ، مـزيح بدبابيس بولينيزية ، بعضها جميل وبعضها الآخر مقصود للزوار .

قال الجنرال :

ـ هذه تسلي الصغار . . .

التفت الى أرجـاء غرفـة الـطعـام ، فـرأيت عـلى خـزانـة نورماندية ، مجموعة منحوتات من الشمال . . . فسألت عنها ، لتجيبني السيدة ديغول :

ـ اهدونا اياها في كيبيك . . .

كانت خادمتان تقومان بخدمتنا ، والجنرال يصب الخمر بنفسه . لم اكن رأيت هذه البسمة الساخرة لديه الا حين ترافق هزة كتف - كما ، مثلاً ، حين رأى بريجيت باردو ، في احدى حفلات الإيليزيه ، تصل بثوب فاضح برندبوري ، فابتسم قائلاً : « ما اقل حظي ، سيدتي ، انت بالزي العسكري وانا بالمدني » . . . او كذلك حين كان يصافح جمعاً ، بدون نظاراته ، فوصل الى احدهم : « مرحبا ، سيدي الكاهن » - ولكن ، يا سيدي الجنرال ، لستَ كاهنا ، انا من حرسك » . . . فابتسم قائلاً : « اذن ، اهلاً باحد الحراس » . . . او كذلك ، حين سمع احد الاغبياء يقول امامه : « بولغ بظروف اعتقال رافنسبروك » فقال له : « المقاومات كن في ظروف مريحة داخل معسكرات الإبادة ، حتى أنهن بقين فيها » .

سأل الجنرال السفير عن اخبار اصدقاء انكليز ، فأجابه :

- اكثر الرسائل تأثراً بين كل ما تلقيت ، كانت رسالة السيدة تشرشل .

واستدار السفير نحوي مكملاً :

- تعرف أيها كانت الأولى ؟ رسالة فرنكو . دعاني الى زيارة اسبانيا . . .

اللحم المشوي عقب السمك . وكان الخمر لذيذاً جداً ، والجنرال لا يترك كأساً فارغة . سألني وهو يصب في كأسي :

- الم تذهب الى الجزائر ؟

كان يعرف انني دعيت لترؤس مؤتمر الدول الناطقة

بالفرنسية . . فاجبته :

ـ كدت اقبل ، لأن الدعوة ، موجهة الى فـرنسي ، ذات معنى . . . قيل لي ان الخلاف كان بارزاً بين الزنوج الاميركيين والزنوج الافارقة . . .

ـ ربما كنت سويت هذا الخلاف . . .

ـ أحسست انني قلت في نيامي ، ما كان عندي اقوله . .

ـ طبعاً قلت في نيامي اشياء مفيدة . هل تغيرت النيجـر كثيراً ؟

ـ اقل من التشاد . لا تزال نيامي مدينة من الامبراطورية الفرنسية القديمة ، حيث الرئيس يسكن القصر الاصغر الذي للحاكم . . .

ـ والقرى ؟

ـ عريقة القـدم . بعض عالمـاتنا في السـلالات يسكننها . ومساهمة النسـاء في طقس النيجر الاسـلامي ، مهمة جـداً . يعتقدن ان في وسعهن لعب دور مهم بين النيجر وفرنسا . ومعهن حق . القرى لم تتغير ، الا في كون جميع الرجال الطوال القامة يدعون « غول » ، كما في الكونغو ، وكذلك نساؤهن او خطيباتهن يدعين : ايفون . . . وغالبـاً ما تسمـع صرخـات : غول . . . غول . . . العمة ايفون .

ضحكت السيدة ديغول ، وسألت :

ـ وما تفعل عالماتنا في السلالات هناك ؟

ـ يجـرين دراسات عـلى المرأة النيجـريـة . مهمتهن ليست سهلة . دليلتي كانت ذات شعر متماوج ، فيما المواطنون هناك يجدون في النيجر إلهة متماوحة الشعر ، بسبب تماوج المراكب في المياه . والمرة الأولى التي استحمت فيها إحدى عالماتنا ، هرب جميع سكان القرية . وحين عادت بعد أيام ، بادرتها صديقتها النيجيرية : « حسناً اننا كنا نعرفك جيداً ، والا كانوا قتلوك . اذ بما انك لست الإلهـة ، فستكونـين الشيـطان » . . . ومن يومها ، وهي لا تستحم الا بقبعة على رأسها تخفي شعرها .

التفت الى كرسي ، رأيت عليها بعض الاعداد من « جورنال ده لا فرانس » ، واول اعدادها خصصت للثورة . تنبه الجنرال الى وجهة نظري ، فتبعها وقال :

ـ كانت الأمور اقل تعقيداً مما كنا نظن . كان في فرنسا ثمانية وعشرون مليون نسمة ، وكان فيها التجنيد الاجباري . وكانت الملكيـة ، لـدى غـروبهـا ، استعـادت قـوتهـا العسكـريـة . والاصلاحات التي طالب بها غيبير حققتها الثورة والامبراطورية . لكن الثورة اعادت فرنسا الى المعـركة ، وفـرنسا معتـادة على ضـربات السيف . وربمـا من فضيلة السلاح ، انـه يقود الى النبالة . . . من كان يقول ان اتباع جان جاك روسو يصيرون رومانيين؟ هل تذكرون يوم رحنا نشاهد « روي بلاس » لفيكتور هوغو في اخراجها الجديد ؟ يومها قلت لك : « ما هذا الموضوع الفريد ! » . واجبتني : « بالنسبة لجمهور العصر ، هذا الخادم العاشق الملكة ، هـو روسو الامس نصب وزيـراً » . لم اكن فكرت بذلك . تراه كان تمنى ذلك؟ لم لا ؟ كان على شيء من الجنون .

لولا هذه اللمح من السخرية ، لكان الجنرال قاسياً جداً . وهو ، الى ذلك ، يحب الغريب الشاذ . . . أجبته :

- لم يكن فيكتور هوغو يعرف ان ملكية « روي بلاس » ، ماري ده نوبور ، رزقت ولداً شرعياً هو اكبر دجال عصره . الكونت سان جرمان . وكاليوسترو وكازانوفا يبحثان عن الدهاء الذي به تمكن من ولوج الغرف الحميمة لدى لويس الخامس عشر حيث لم يتمكنا قط من الدخول : ذلك ان الملك ، كما سائر ملوك العصر ، يعرف مولده . . .

على غلاف عدد آخر من مجلة الاسبوعية ، صورة كبيرة لنابوليون سألني :

- ماذا تقول في الامبراطور ؟

- فكر عظيم ونفس صغيرة . . . لكن ذلك ليس ليقال في كورسيكا .

ذات يوم ، كان عليّ ان القي في أجاكسيو خطاباً في ذكرى ولادته ، وكان على الجنرال ان يلقي في الانفاليد خطاباً في ذكرى نقل رفاته . قلت للجنرال :

- يبدو لي أنه لم يكن يوماً في مواجهة الاستفهام الميتافيزيكي او ، اذا شئت ، الديني . في مذكراته ، كلام على وساوسه ، مع ان كبار المفكرين الدينيين موسوسون .لكن ديانته الحقيقية لم تكن مختلفة كثيراً عن ديانة امه ومعتقداتها . هكذا كبار الغزاة ، نادراً ما يستوقفهم سؤال عن معنى الحياة : الاسكندر ، يوليوس قيصر ، جنكيزخان ، تيمورلنك . . واظنهم ، حين مثلوا أمام

الله ، ارسلهم جميعهم يتلقون دروساً في الدين .

ابتسم الجنرال بما اوحي التقاءه مع الغرابة الانسانية ، وأجابني :

ـ ربما لم يكن لديه الوقت ليهذب روحه . تذكر ، في سانت هيلين ، عبارته الشهيرة : « هذا محزن ، كما العظمة » . متى قال ذلك ؟

ـ حين بلغ جزيرة البا . . .

ـ لكن هذه ليست روحاً عادية . . .

صحيح ـ كانت الروحانية دائمًا غريبة عن نابوليون . لكن علاقته مع الحياة في سانت هيلين ، ليست ما كانته في أوسترليتز .

ـ ثم ، لدى الاشخاص التاريخيين ، تتخذ قدرة الخلق الاسطوري مكان الروح .

ـ ماذا كنت قلت في الانفاليد ؟

ـ ترك فرنسا اصغر مما وجدها . لكن الأمة لا تحدد هكذا . كان يجب ، من صالح فرنسا ، انه يوجد . كما فرساي ، كان يجب بناؤه . لا يجب ان نتجر بالعظمة .

يعرف الجنرال أن القوة هي القوة ، ويحس ضعفنا . لكنه لا يفكر في فرنسا بتعابير القوة (لذا استسخف عبارة ستالين : « لفرنسا مقاطعات اقل من حكومة لوبلين ») . ولا بتعابير المساحة الجغرافية . فكيف لم يع ذلك اوضح ، حين قرر قبول

استقلال الجزائر؟ يومها ، فضل روح فرنسا على كل الباقي ، وربما على نفسه . لذا ، لا يعلق كبير اهمية على كون نابوليون ترك فرنسا مهشمة : كان الامبراطور اثبت للفرنسيين ان فرنسا موجودة هنا اكمل الجنرال :

- ثم ان قدر نابوليون ليس القدر الوحيد التاريخي المنسوج من مجموعة اخطاء . . .

- كل رجل من التاريخ ، يجمع اسلحته قبل ان يختار بأي منها سيقاتل . . .

- يجب ان يختار . . . مأساة انكلترا حالياً ، انها مرغمة على الاختيار بين احتفاظها ببقايا الامبراطورية لقاء الهيمنة الاميركية ، وبين لعبة شريفة مع اميركا . امضى تشرشل كل وقته يعطي الولايات المتحدة دون حساب ، بدءاً من جزر الانتيل مقابل خمسين مركباً لم تكن تستعملها اميركا . بينما نابوليون لم يحسن الاختيار بين القائد العام والامبراطور . قبل لايبزيغ ، بقي ساعات يوقع قرارات ، مع ان جيشه لم يعد ، يومها ، الجيش الفرنسي . فكيف بدأت الأمور؟ وكيف اختلطت؟ سأخبركم : «حتى١٨١١ ، لم يكن تفكيره العبقري ضعف بعد . وكان عمق استراتيجيته ، مبنياً على توحيد جميع الجهود في واحد ، والعناد على مضاعفة الرهان ، وحب المغامرة . وفي المعارك ، كان يعرف ، كما لا احد ، ان يخلق كسر التوازن ، ويعرف ان يستغله . لم تكن إرادته تخيب في الانتصار ولا في الانكسار . يقول فولتير ان الصفاء في حالات الالم القصوى ، هو اول فضل لدى القائد . وفي كل مصير تاريخي ، ثمة اللحظة التي بها البدء . وتلك اللحظة ، مع نابوليون ، هي في لودي » .

فكرت ان اقاطعه ، لأسأله : « ومعك انت ، متى كانت ؟ » لكنني اعرف جوابه : كانت يوم لم يعد يفكر في ويغان ونوغيس والآخرين (على افتراض انه . . .) ، وحين سأله رينيه كاسان في لندن . « كوني قانونياً ، هل يمكنني اعتبارنا بعثة اجنبية ام جيشاً فرنسياً ؟ » أجابه : « نحن فرنسا » .

وراح الجنرال يسترسل في حديثه عن نابوليون :

ـ على أن نابوليون يدعي دائماً الضغط على الثروات . لكن النفوس ، كما الاشياء ، لها حدود احتمال . وبدءاً من ١٨١٣ ، لشدة ما ضرب ، كسر سيف فرنسا . وحين تنكسر النسبة المتوازية بين الهدف والوسائل ، لا تعود تنفع مزايا العبقرية . وما فعله في القسم الأول من حياته (كقائد عسكري) مصمم سلفاً في شكل مدهش . وكل ما فعله بعد حملة روسيا ، له طابع المغامرة ، اعرف ان الضابط البسيط حين يصير امبراطوراً ، يمكنه التفكير بأن الامبراطور العائد سينتصر بعد . لكنه ينطلق الى هذه المعارك كما لو كان شخصاً آخر . . .

ما يفكر به الجنرال ، وما عالجه ، يتخذه في ذاكرته حجم تلخيص ممنهج . فهو لا يرتجل ، بل يحلل . وحين يكون التاريخ هو المحور ، كيف لا يبدو محترفاً كبيراً بين هواة ؟

قلت له :

ـ جوزفين بيكر تقول ان العودة الى النجمية اسهل من صيرورتها .

فاجابني :

ـ شرط عدم التوهم بهذه النجمية . لو لم يربح نابوليون عدداً من المعارك ، هل كان يقدم على واترلو كما اقدم ؟

ـ في النهاية ، عانى نقصاً في المقاتلين ، وبدا يحارب جميع مبادىء شبابه . مع ان الأمير شوارزمبرغ اكد لي ان جده عرف كيف يجلب من روسيا المقاتلين النمساويين .

ـ ربما لم يهاجموا كثيراً . لكن النكسات لم تصب مجد نابوليون في العمق . . . وبقي اسمه عظيًما ، ليس عند الفرنسيين فقط . بقي يحرك النفوس . وها هو قبره حتى اليوم يستقطب زواراً يصلونه فيحسون بقشعريرة العظمة . . .

ـ رغم تحقير تولستوي الكان يعتبره لصاً . بعد انكساره ، كرهه الجنوب . وفي كاركاسون ، اقيمت محرقة كبرى ، جيء لها بنسر من احد الاقفاص ، واحرق عليها .

ـ وهل تكريم لاحد اجمل من احراق نسر تعبيراً عن كرهه ؟ ترى ، ما كان شعوره ، وما دهشته ، عند انكساره في المرة الأولى ؟ هزكم صراخ جاندارك حين بلغتها النار . كنتم تعتقدون ان القديسين سيحمونها فلن تحترق . اظنه احس بما يشابه .

ـ لا تزال احدى عباراته تهزني لسحرها وغموضها : « اضع مخططاتي بأحلام جنودي النائمين » . وهو اعاد التنظيم ، وكان يحمل فيه حاجة تغيير الفوضى الى نظام ، كما جميع رجال التاريخ الذين ليسوا رجال مسرح . سياسياً ، الأمر واضح ، لأن الفوضى التي ينظمها ، واضحة . ولكن ، في الميادين غير السياسية ؟ حالياً ، اعمل على جمع مقدمات كنت كتبتها عن

اشخاص من نهاية القرن الثامن عشر ، اذن عن أشد الأزمات التي اجتازها الفرد في حياته . فما كان سيكون ادب يكمل لاكلو ، او سياسة تكمل سان جوست ، او رسم يكمل غويا ؟ فانما بسبب نابوليون ، كان لمدام ده ريكامييه ان تخلف « الصبية العارية » (لغويا) . لكنه حمل فرنسا الى جهة الرجال . ومنذ ١٧٥٠ ، لم يكن الفرنسيون الذين غزوا اوروبا ، بل الفرنسيات .

ـ جعل الطموح سيداً على فرنسا . وكانت الثورة الفرنسية حكاية خرافية . حول الاصطلاحيات الى أوامر . كان استاذ طموح ، كما كان يقول باريس : « استاذ طاقة » .

ـ القديس راستينياك ؟ لكنك كتبت : « الدفع العنيف للطموح ، الذي يساند رجل التحركات » او ما يشابه . . .

ـ لم يكن المقصود ، هوى الدرجات والتشريفات ، بل رجاء التأثير على الأحداث الكبرى . الطموح الفردي هوى طفولي . من هنا تفضيل ما به يظهر ، على ما هو . . . وهذا هو نابوليون ! وكان قادراً على تدجين وحدته في سانت هيلين . . . فهل كان له اكبر من دعوة فرنسا ؟ كان يحب الجيش الفرنسي ، اذ عهدئذ ، وتحت امرته ، كان الجيش الأقوى . لكنني اظنه وعى قدره ، حتى في سانت هيلين ، على أنه قدر فرد غير عادي . مع ان الفرد شيء صغير في ازاء شعب .

ـ هو حتماً سيد راستينياك ، سيدي الجنرال ، لكنه سيد نيتشه ايضاً . مهما حصل في سانت هيلين ، كان طموحه مكتفياً . يقول ستندال انه لو وحد ايطاليا عام ١٨١٣ ، لكان تمكن من

مواصلة الحرب فيها بعد واترلو .

ـ كان يجد ان لديه ايطاليين ، لا ايطاليا . فيما كان يحس ان معه فرنسا . . .

ـ أود معرفة لماذا المتحمسون له يسلفونه من انتصاراته ولا يدينونه من انكساراته . ربما لأنه يدهشهم . والفرنسيون معترفون له ، كما للجمعية التأسيسية ، كما لجاندارك ، اذ يظهرون قوة عند احتياجهم لها . نابوليون وثق بهم . لذلك احتملوا واترلو .

ـ صحيح انه لم يكن دائماً على مستواه المطلوب . لكنه كان دائماً يواجه ضده المثرثرون . وهؤلاء يؤذون . . .

وبدرت منه حركة معناها : « هل يمكن اتهام الناس بالمرض ؟ »

ـ طبعاً تعرف ماليزون ، سيدي الجنرال . وانت سيدتي . . .

ـ طبعاً .

لم اذكر انني سمعت هذه الـ « طبعاً » من امرأة ، منذ رئيسة دير فيلغرانش التي سألتها ان كان لديها انجيل يوحنا . . . قال الجنرال :

ـ لا تزال موجودة ، الخميلة الكان بونابارت يمارس تحتها رياضته .

ـ كانت شجرة مقابل بوابة الحديقة . بين غصنيها الكبيرين ، رأى نجمته ، وهو عائد من أوسترليتز . وحين ذهب الى

مالميزون بعد واترلو ، لم يكن استذكاراً لجوزفين ، اذ استقبلت هناك القيصر ، بل ، كما يقول الجنرال برتران ، ليجد هناك نجمته الكان اضاعها منذ سمولنسك . وهو روى القصة على متن السفينة التي حملته الى سانت هيلين . كانت معركة اوسترليتز في الثاني من كانون الأول ، وواترلو في ١٨ حزيران . لم يكن الامبراطور فكر بذلك . . . وهكذا ، راح في مالميزون ، شارداً تائهاً ، تحت القناديل في اروقة مالميزون ، يبحث عن قدره الضائع ، وبعد ايام ، يستقل السفينة « بلروفون » . . . كان الأمير نابوليون راح يرى الحديقة ، لكن الشجرة كانت شاخت كثيراً ، فقطعوها .

ـ لا يمكن ايجاد النجمة عند البحث عنها . . .

ـ « احكي لنا عنه يا ستي ، احكي لنا عنه » . إنه اعطى الشعب إمكان الوصول الى الارستقراطية ، وهذه الفرصة كان يسميها المساواة . لكن ما كان يسميه مجده ، ويضعه فوق الكل وحتى فوقه هو ، كان من طبيعة اخرى .

ـ اراد جعل الفرنسيين ارستقراطية ، ولكنهم لا يحبون شيئاً حبهم لها . وممن كان محبوباً سوى من الشعب ؟

ـ وما الشعب ، سيدي الجنرال ؟

ـ فرنسا ، طبعاً . . .

العبارة نفسها التي قالها ، عند انتخابه الثاني ، في مكتب الإيليزيه ، حيث اللوحات الفنية الرائعة ، وخارطة العالم ، والشبابيك الكانت تؤطر احواض الورد التي صارت وحيدة . وعاد الجنرال يسترسل :

ـ طبعاً ، لا أؤمن بمبدأ العدد ، لكن الهوى الجماعي موجود كذلك لدى الأقليات . افضل هوى فرنسا على هوى المجلس الاقتصادي او هوى الاكاديمية الفرنسية . . . الجماعات عرفت اهواء عظيمة ، والاجسام لا غنى عنها ، لكن الاهواء لا تنفعها كثيراً ، بل تخلطها مع العقل . نابوليون ، صار ـ في نظر اكثر اخصامه الاجانب ـ رجلاً عبقرياً . في نظرنا ، افهم ان يكون يؤكد لفرنسا انها اهم مما هي تظن . ولكن نحن ، ما فعلنا غير ذلك ؟ وبالنسبة للالمان ؟ هل يكون في نظرهم خلف شارلمان ؟

ـ ليس أشد غرابة من هيولى السيرة الى الحياة الاسطورية ، سيدي الجنرال . . . لماذ يوليوس قيصر هو احد ابرز الوجوه في الغرب ؟ عنده انتصارات مهمة انما غير عظيمة خارقة ، وحكم روماني حازم كما غيره . . . انما ، ثمة بلوتارك . . . وشكسبير . . .

ـ الانتصارات اقل اهمية مما نظن . لماذا تورين اشد احتراماً من كونديه ؟ ولا معركة لديه اهم روكروا . . . موريس ده ساكس لم يخسر معركة واحدة في حياته ، ومع هذا لا يساوي نابوليون الذي انتهى منكسراً . الانتصارات التي ليست سوى انتصارات ، لا يؤدي بعيداً . يجب ان يدخل معها عام آخر . ربما الأمة الآتية : جاندارك ، مستقبل العالم ، التفسير الغامض والرمزي للذين يصنعون التاريخ . أمّا نابوليون ، فكان منتصراً حين كان يقود الجيش الفرنسي ، ومنكسراً حين كان يقود الجيش العام الكبير ، وكان لم يعد كله فرنسياً ، الا في واترلو . . . فرنسا مدينة له ، دون ان تعرف ، بما عمله للفرنسيين . كانوا آتين من روسباخ ، حين هو واصل من

ايطاليا . جعل من الجيش الفرنسي ما جعلت روما من البعثات ، والاسكندر من الجمعيات السياسية السرية . ثم ان الـ ٣٧ الف حارس ، فرنسيون ، حتى المبتدئون بينهم . وفيكتور هوغو جمع بينهم كلهم في براعة . . . اراد نابوليون ايجاد فرسان في الجيش ، يجعلهم فرسان جوقة الشرف . كما خلق فرقاً فرنسية نخبوية لم يصدم أمامها احد . صدقوني : فرنسا لم تنس له ذلك ، ولو هي اعتقدت انها نسيت . عام ١٩٤٠ ، كان معي يقول للفرنسيين انهم ليسوا ما يبدون عليه.

وبدرت منه حركة غريبة ، كما لو أنه انب نفسه على كونه تكلم في مواضيع جدية الى مائدة الغداء . ثم استأنف بلهجة شبه ساخرة :

ـ وماذا عن مشروعك لنقل جثمان ابن نابوليون ؟

ذلك انني كنت وجدت من السخف ان يبقى تابوته موازياً لتوابيت كبارنا ، فاقترحت ، طالما انه في الانفاليد ، ان يوضع على قدمي تابوت والده .

ـ اعتقد ان النقل تم . . .

ـ لم نشعر بذلك . لم نعد نعرف بأي شيء . . .

واردف ، في فضول لا مبال :

ـ لماذا ، ترى اتخذت شركات كثيرة للتأمين رمز النسر شعاراً لها ؟

ـ ربما لأن ابرزها اميركي المصدر . . .

ـ ليلياً ، اسمع في الراديو عن جادة الرئيس كينيدي . ولا مرة سمعت عن جادة كليمنصو في واشنطن او لندن . . . في نيويورك ، استقبلك ، يومها ، جونسون ، اظن ؟

ـ نعم سيدي الجنرال ، بصفته نائباً للرئيس . . .

ـ مع أنه لم يبد بتلك الصفة . . .

ـ اظن ان الاميركيين ، في والدورف عام ١٩٤٤ ، اصطفوا ليستقبلوك بالتصفيق . . .

ـ وارسلوا اليّ اوراقاً صغيرة ، في احدى الجادات . . . انهم شعب متحمس ونظيف . . . لا بأس به .

ـ هل تتذكر حوارنا يوم عدت من جنازة الرئيس ؟ حدثتنى عن السيدة كينيدي . قلت لك انها لعبت في ذكاء لعبة ان لا تتدخل في السياسة ومع هذا تعطي زوجها مجد نصير مهم ما كان يجده لولاها : يوم غداء الخمسين حملة جائزة نوبل . فأجبتني انها امرأة شجاعة وراقية . انما لا تخطىء بتقدير قدرها ، لأنها نجمة ، وستنتهي على يخت احد امراء البترول . . .

ـ أنا قلت لك هذا ؟؟ غريب . . . مع أنني كنت اقدر أنها قد تتزوج من سارتر او منك . . . قالها بلهجة ساخرة غير الأولى ، في حالة من يبدو غريباً عما يقول . . . فأكملت :

ـ تتذكر اليافطات في كوبا ؟ «لا لكينيدي ، نعم لجاكلين » . . .

هنا تدخلت السيدة ديغول :

ـ شارل ، لو كنا ذهبنا الى هناك ، هل كانت ستقوم

يافطات : لا لديغول ، نعم لايفون ؟

نادراً ما كان يجيب عن الاسئلة الساخرة . حين دخلت احدى صديقاتنا دير الكرمليات ، كتبت مقالاً وداعياً . فقال لي : « لا تنشره ، يمكن ان تعدل عن رأيها اذ لم تقدم نذورها بعد » .

وبالفعل ، عدلت عن رأيها .

عدت الى السؤال :

ـ أي انطباع تركت فيك انديرا غاندي ؟

ـ كتفان هزيلتان يقوم عليهما قدر الهند ، وتحملانه . تظن ، لو وصلنا الى القنبلة الذرية قبل الاميركان ، كنا انتهجنا السياسة نفسها ؟ لو رفضت حكومة المديرين نابوليون ، لكان تغير كل مصيره . ولو كان بورقيبه من مواليد الشمال ، لكان عمدة مرسيليا . اجمالاً ، النساء يفكرن بالحب ، والرجال بالمراكز المميزة . بعد ذلك ، يفكر الناس بالسعادة ، وهي غير موجودة .

تذكرت عبارته : « وهم السعادة موجود للسذج . هل كنت سعيداً يوماً ؟ ربما ، من زمان » . وتذكرت عبارة جيد : « غريبة ، هذه النقيصة فيّ أن لا اعرف كيف اكون سعيداً » .

وأجبت :

ـ النساء يفكرن في الحب . صحيح . لكن « امرأة مرهفة » اوحت الى ستندال ان عملية البلورة عادية ، بينما ان تكون المرأة بلورة ، هنا الأهم .

وعادت السيدة ديغول الى مزاحها :

ـ ولكنك ، شارل ، اعطيتهن حق التصويت . . .

ـ فرنسا لا تنشطر .

ـ وعفوت عن جميع المحكومات بالاعدام .

ـ النساء يملكن الافضل والاسوأ . لا يجب اعدامهن .

هل تعني لهجته : انهن غير مسؤولات ؟ ربما . لكن لهجته تغيرت ، وأكمل :

ـ لم الجمال النسوي قناع ؟ المنحوتات ، اللوحات ، الأفلام . . .

ـ انه الماكياج . اللواتي كان لي شرف استقبالهن معك : مارلين ، لودميلا تشيرينا ، بريجيت باردو ، لم يكن يصلن الى الايليزيه بملاقط الشعر . الفنانون يخترعون الاحلام ، والنساء يجسدنها . لكن المسيحية وحدها اخترعت الانوثة الخالدة .

ـ لماذا ؟

ـ حاولت مرة ان افهم كيف فينوس ده ميلو تمكنت من أن تصير عذراء قوطية . هذا حدث اول جعلني احلم . حين الكنيسة تعتقد ان مصيرها متوقف على كلوفيس ، الوثني . تبحث له عن امرأة كاثوليكية . ولكن كلوتيلد اميرة سويسرية . انما الكنيسة لا تبحث عن الاجمل ، بل عن المرأة الجذابة . اشهر بنات الهوى ، كن جميلات جداً ، بل رائعات الجمال ، انما غير جذابات . انها الانوثة ، تحددها العذوبة . في ما بعد

سيطرت في المسيحية عبادة مريم ، فاذا اكثر الكاتدرائيات على اسم « السيدة » . تعرف النظرية القائلة ان الاقطاعيين عندما انطلقوا في الحملات الصليبية ، راح الفرسان (المجندون منذ سن الثالثة عشرة والذين لم يروا في حياتهم الا امهاتهم وشقيقاتهم او الفلاحات اللواتي كانوا يضاجعونهن) ، يكتشفون ، مع السيدة الاقطاعية التي صارت تترأس الاجتماعات في غياب الاقطاعيين ، سيدة في الخامسة والعشرين ، ذات جاذبية اطاشتهم . . من هنا ، قلت ان المسيحية خلدت الانوثة الخالدة . لكن هذا منفصل عن الميدان الديني . آنياس سوريل كشفت عن نهدها في صورة للعذراء . واللحظة الحاسمة في الرسم ، حين الرسام يكتشف الانوثة الخالدة ازاء العذراء . . .

ـ أكمل . . .

ـ« الجوكوند » ، هي اللوحة الوحيدة التي يجمع عليها الكل . ولو لم تكن محمية من زجاج واق ، لكانت ثقبت من زمان . كان سارقها حملها الى غبريال دانونزيو ، مذهولاً . وكانت الشرطة عثرت على الاطار والبصمات وواصلت البحث . وكان السارق ، بيروجيو، لم يعمل في اللوفر قبل ستة اشهر . لم تكن بصمات ، مع الشرطة ، لكن هذه دخلت غرفته ، وكتب رجال الشرطة تقريرهم على الطاولة الكانت تحتها اللوحة دون اطار . وحين ارسلناها الى الولايات المتحدة ، على متن الباخرة « فرانس » ، وزعت الازهار على الركاب ، وبقيت بطاقة مكتوب عليها : « الى الموناليزا » ، ظنها القبطان لأحد الصحافيين ، لكن

البطاقة كانت بيضاء . على أن الجوكوند قد لا تكون الموناليزا ، بل كونستانس دافالوس ، المتشحة بحجاب الحداد ، واقدم بنحو عشرين سنة . ما يكون عمرها ؟ علقت في حمام فرنسوا الاول ولويس الرابع عشر ونابوليون ، اي في زمن لم يكن يمجد ليونار ، الذي كان ذا شعور خاص ازاء رسمه ، حتى كتب : « كان لي يوماً ان ارسم وجهاً الهياً حقاً » . طبعاً ، الوجه بدا كما الهياً ، لأن بعث الاشكال القديمة كان من المنحوتات ، وهذه بلا نظرة حية ، اذن بلا روح . من هنا ، في واشنطن ، قلت إن « المرأة ذات النظرة الالهية تنتصر على الآلهات اللواتي بلا نظرة » . « فالوجه الذي بلا نظرة ، كما في المنحوتات القديمة ، هو التجريد : النوم او الموت » . هل تحب المنحوتات الاغريقية ، سيدي الجنرال ؟

سألته ذلك ، لأنني لمحت في مكتبته عناوين بعض المجموعات .

ـ دفعتني غير مرة الى تدشين بعض المعارض التي حملتني على التفكير . كمعرض المكسيكيين مثلاً . المنحوتات التي تستحثني ، تلك التي تعود الى القرون الوسطى . . . اعجبني قولك مرة ، ان زمان الصليبيين اطلع على قديسين عسكريين ، لا فرساناً . كيف تم اختراع القديس جاورجيوس وهو لم يوجد قط ؟ ما همّ . المنحوتة القوطية ، الرومانية ، تستحثني . الباقي من عالم الآثار . . . ترى ما كان حلّ بالفن اليوناني ، لو انكسرت اليونان في سالامين ؟ .

جوابي عن سؤاله ، أعرفه . لكنني لم اعرف على ما سأبنيه . . .

ـ الأسكندر قضى على كل شيء .

بدا كأنه يزيح حلمًا ، وقال :

ـ صحيح . وعند الفجر ، هجم الذئب على عنزة مسيو سوغين ، فافترسها ، وهي كانت تناضل طوال الليل . . . هل استقبال الولايات المتحدة للجوكوند كان كما وصفته الصحف ؟ .

ـ غداة الخُطَب ، رأيت زحف الجماهير في واشنطن ، مع الأطفال احياناً ، نحو الأيقونة الكبرى . وفي نيويورك ، حيث كان يبدأ الصف الطويل لمشاهدتها منذ السادسة صباحاً ، وصل شاب في العشرين ، يلبس سترة مبطنة بالفرو ، منتفخة كما لو خبأ فيها بندقية . قفز عليه الشرطي ، وراح يفتشه ، فقفز من عبّه كلب صغير ، فاستدرك الشاب : « اردت ان يكون فوكسي الكلب الوحيد في العالم يرى الموناليزا » .

وهزت السيدة ديغول رأسها تقديراً . فقال الجنرال :

ـ سنرسل اليهم ، بعد ، لوحات ، إنما من مستوى آخر . ولكن ، ألم يكن سفرك الأول ، بخصوص اللاجوكوند ؟ . ما زلت اتذكر برقياتك فترتئذٍ ، أو بالأحرى برقيات السفير . كانت ذات ملخص جدّي . وكنت أعرف ان الرئيس كان يتمنى المصالحة معي ، لا على موضوع الجزائر . . . فما قولك اليوم ؟ .

ـ أجرينا معاً لقاءات مختلفة . الأول ، لن أتكلم فيه . رافقني سفيرنا . ولم يكن في نية الرئيس تغيير رأيه في شيء ولا في أحد . . . كان متجمداً أكثر من مفتكر ، لأنك كنت طاغياً في عينيه ، ولم يكن من لمحة فيهما لفرنسا . اذن ، لا اتفاق حول

الكونغو ، ولا حول فيتنام . ووصلنا في الكلام الى الجزائر . أبدى ليونة ، إنما اهتماماً كبيراً . قلت له : « آجلاً أم عاجلاً ، سنصل الى استقلال الجزائر . معنا أم ضدنا ، لا فرق . عندها تنصرفون الى افريقيا أو آسيا ، واتمنى لكم حظاً موفقاً » . في البدء ، ظنني أهذي ، ثم بدرت منه حركة غامضة ، كما ليستبعد الموضوع . كان اللقاء انتهى ، إذ لم يعد لي ما أسأله إياه . فقام عن مقعده الوثير ، في تلك القاعة الكبرى حيث كنا وحدنا ، وتقدمني قائلاً : « نقمة السيدة كينيدي ستمحو كل شيء هذه الليلة (كان يستقبلني في البيت الأبيض) ، ولن نتكلم على لافاييت » . فأجبته في مرح : « ومن يكون هذا الفتى ؟ » ، فضحك عالياً ، وانفتح الباب المزدوج عريضاً ، فدخل المصورون يلتقطون لنا صورة ضاحكة ، كما لوريل وهاريل .

ـ وعند المساء ؟

ـ ملاطفات . . كنت في غرفة تحوي السيدة كينيدي . وكان هو في غرفة أخرى . وكانت السيدة كينيدي فعلت ما في وسعها ليبدو هذا اللقاء (وكان قال عنه : « لقاء حاداً ») مفطر ببعض الحرارة . وقبل نهاية الأسبوع ، وتبادل الحراقات (كان شغوفاً بمصغرات المراكب) كان قال عني : « هذا موضوع ، يهم جاكي » .

ـ ورحلتك الثانية كانت بخصوص الجوكوند ؟

ـ لم يكن في هذه أي اشكال . فالحرارة الاميركية عميقة ومخلصة . كان الرئيس يظننا ، نحن الفرنسيين ، ندير شؤوننا

بالصداقة . وجرت احداث تعرفها اكثر مني . . . كان يظن انك أنت أرسلت الجوكوند ، وأنّ لي بعض الضلع في ذلك . كان رجلاً مرهفاً تجاه المجاملات ، فدعاني الى منزله الريفي . . . وبعد غداء من السراطين الرخوة . . .

قاطعتني السيدة ديغول :

ـ وما السراطين الرخوة !

ـ هي التي تصل المائدة كما لو كانت أصلاً بلا قوقعة . هذا كل ما فهمته . . .

ـ هل هي لذيذة ؟

ـ كالسراطين العادية .

ـ تدخل الجنرال .

ـ وعندها تكلمتما جدياً ؟ يعني . . . لا اكثر من كولومبي . . .

ـ سيدي الجنرال . . . لدى روبرت كينيدي ، شقيق الرئيس ، كان كلب اسمر ينتظر المدعوّين في مدخل الممر . وكان آخر ، من الفصيلة نفسها ، إنما أسود ، على مدخل البيت . وحين رفعت كأسي قلت : « مشكورون لأنكم استقبلتمونا بكلب فهم ان يكون باللباس الرسمي » . . . فساد الجو مرح عام . ذلك ان الولايات المتحدة ليست تتقيّد بالبروتوكول ، وغالباً ما تكلمت مع الاميركيين بهذه الحميمية التي تسميها أوروبا جدية . . . وقتها ، كان الرئيس واصلاً بالطائرة من اجتماع لنحو ثلاثة آلاف نسمة ، فوجد فيه ثلاثمئة

ألف . قال لي : « حسب معلوماتي ، هكذا الأمر مع الجنرال ديغول . فلِمَ ؟ » أجبته : « لأن الاسطوانات جعلت الجمهور لا يعود يهتمّ للموسيقيـين . . . وانتم ، وسائـل إعلامكم ليست الأسطوانات » . بعدها ، رحنا نتكلم على فرنسا ، فقلت له اننا تعرضنا مراراً للاجتياح ، مما لم يحصل للولايات المتحدة ، وإن حكومة عندنا لا تؤمّن الدفاع الوطني ، لا تكون شرعيتها إلا ظاهراً . اظنك قلت له ذلك ذات مرة قبلئذٍ . . .

ـ ما هكذا بالحرف . وما أجابك ؟

ـ باختصار ، قال لي : الدفاع عن أوروبا ، مهمتنا . فأجبته ان الدفاع الوطني هو إرادة الدفاع نفسها ، كما مع ماو ، وكما في فيتنام . فكّر لحظة ثم أجاب : « فرنسا بلد عجيب : أتـذكر مـآسيها بعـد انتصاراتهـا التي جعلتهـا أول بلد في اوروبـا ، وبحريتها المعاد تنظيمها ، المساعدة التي أسدتها الينا ، الثورة ، نابوليون . . . ١٩٤٠ ، واليوم الجنرال ديغول » . قلت له انها بلد لا يخضع للمنـطق ، ولا يجـد نفســه إلاّ حـين يبـذلهـا للآخرين : الحملات الصليبية ، والثورة ونابوليون . انكلترا لم تجد نفسها عظيمة كما عندما كانت وحدها ، ومعـركتها عـام ١٩٤٠ ، لا مثيل لها منذ درايك ، فيما فرنسا لم تجد نفسهـا عظيمة إلا عندما كانت عظيمة للعالم .

ـ ثمة ميثاق عريق بين عظمة فرنسا وحرية الآخرين . . .

ـ صحيح ، سيدي الجنرال . . . وأنا كنت أعرف ما به يفكر الرئيس كينيدي : لا يمكن الولايات المتحدة ان تبني سياستها الأوروبية على فرنسا ، ولا يمكنها كذلـك تجاهـل فرنسـا لأن

الفرنسيين قادرون على كل شيء ، كما ، مثلاً ، على اختراع الجنرال ديغول . . . وعقّب كينيدي حديثه عن الولايات المتحدة ، فقلت له . ما كنت قلته لك بالأمس ، وكنتُ قلته في بكين لوزير الخارجية : « الولايات المتحدة هي الأمة الوحيدة التي صارت الأقوى في العالم دون ان تسلك الطريق العسكري . الاسكندر أراد ان يكون سيد العالم (عالمه هو) ويوليوس قيصر . لكن الولايات المتحدة بحثت عن هيمنة اقتصادية ، وهذا أمر مختلف تماماً . وبما انها اليوم تتمتع بهذه القوة الهائلة ، تتساءل ماذا ستفعل بها ؟ » . وخيّل لي انني التقيت وإياه على فكرة واحدة . كان يرغب حل مشاكل اوروبا وآسيا بقرار من الولايات المتحدة ، ولذلك اثارني في المرة الأولى صحيح انني اؤمن بقوة الولايات المتحدة ، لكن القوة شيء والتاريخ شيء آخر . قرطاجة ، كذلك ، كانت قوية .

ـ لا تخطىء : كان يريد ، بأي ثمن ، المحافظة على الرصيد القائم للولايات المتحدة في دفاعها عن الغرب . ولست على يقين من انها ، رغم قيمتها ، لم تعِ الفرق بينها في أوروبا وبينها في اميركا . . . فالولايات المتحدة ، في اميركا ، نشأت من لاشيء ، على سيبيريا خصبة ، من مجموعة مراكب غادرت جذورها . واذا صارت الولايات المتحدة سيدة العالم ، سترى الى اين ستؤدي بها إمبرياليتها .

ـ تذكرت عندها عبارة الرئيس ايزنهاور : « لن أمثل أمام الله ويداي ملطختان بالدم » .

ـ لكن الدم يجفّ في سرعة .

ـ قلت للرئيس كينيدي : « انتم اليوم مرغمون على سياسة عالمية ، كما أرغمت روما ذات فترة على سياسة متوسطية . ومنذ خطة مارشال ، ما كانت السياسة العالمية للولايات المتحدة » ؟ .

واحسست انه فعلاً يريد مجابهة التاريخ ، وتحمل المسؤولية ، الكبرى التي على الولايات المتحدة ، والتي يعيها تماماً . واعتقد انك ، اذ اعلنت ذلك له ، أقمت العلاقة العميقة التي لا الى هدم . . . وهذا الرئيس السياسي الحذق ، كانت فورات غضبه تفصله عن السياسيين ، حين يدخل في اللعبة مصير الدولة . . هل تذكر قوله على شاشة التلفزيون : « كان ابي دائمًا يقول لي ان الصناعيين ، إزاء البلاد ، يتصرفون كما ابناء العاهرات ، ربما كان يحس عندها بالخطر ، لكنه لم يكن يبدي أيّ اهتمام ظاهر في ذلك» .

ـ إعلم أن الشجاعة ، في عدم الاكتراث للخطر ، ولو كان الموت اغتيالاً أو بصاعقة .

قالها الجنرال وهزّ كتفيه . . . فقلت :

ـ حين اغتيل يوليوس قيصر ، كان يحمل في يده لائحة المتآمرين ، إنما لم يقرأها . والرئيس ، حين حدّثني عن لنكولن ، هزّتني لهجته . كان يأمل ملاقاته على حياته ، فالتقاه في الموت . وكان أن غفلة من شرطة دالاس ، كانت كافية لتغيير تاريخ العالم .

ـ اظن الرئيس كينيدي مات يوم عيد ميلادك . القدر يلعب وحده لعبته السحرية : شكسبير ولد عام وفاة ميكالانج ، والشمس نامت في حضن قوس النصر يوم ذكرى وفاة نابوليون

الذي لم يرها قط . وكان آخر عمل رسمي قام به لويس السادس عشر ، ترقية ملازم في الجيش اسمه بونابرت . . . إذن ، بعد الاعتبارات التاريخية ، قال لي الرئيس في طريقة جافة : « ستكون للصين قنبلتها الذرية . فهل نتدخل منذ الآن ؟ » . لم يكن يعلّق كبير أهمية على ذلك ، إنما كان يعتقدني لن اتكلم مثل مستشاريه الأميركيين ، وسأحمل له ميداناً جديداً للتفكير ، وكان ينتظر ، حتماً ، من جوابي ، صدى لأفكارك وتفكيرك .

ـ أذكر ، قلتَ له ان الصين لن تكون لها قنبلتها الذرية قبل عام . . .

ـ وكان هذا صحيحاً . لكن ما لم أفهمه ، لاحقاً ، حين تكلمت مع الصينيين ؛ لماذا اعتبار التدخل الاميركي نوعاً من الحرب (وإلا لما كان الاميركان نزلوا في الصين) بدل اعتبار انّ سحق بعض المراكز الصناعية الصينية اعاد الصين خمسين عاماً الى الوراء ؟ اعتقد انه سألني السؤال نفسه الذي سألته إياه وزارة الحربية . وأجبته ان معه من الوقت أكثر مما يظن ، واضفت ، متحفظاً ، انه لن يتدخل .

ولم يجُب الجنرال . . . هل تساءل ، مرة اخرى ، عما كان يفعله لو هو يملك القوة الاميركية والقنبلة الذرية ؟ هل فكّر بروسيًا ؟ في الخارج ، يتساقط الثلج كما على المدينة المحرّمة . عدتُ الى الكلام :

ـ أراد كينيدي حتمًا ان يقوم بعمل تاريخي ، له وللولايات المتحدة . ولكن لا يمكن وعي عمل أقوى بلد في العالم ، دون

اعتباره امبريالية .

ـ من يدري كيف سينصفه الزمان ؟ كان رئيساً حقيقياً : كان مهندساً لا مديراً . أراد ان يعمّر . داهمه الموت . هل تقام التماثيل للطموحات ؟ كل الموضوع يتوقف على الخلف . نيكسون سيخرج من قمقمه بشكل أو بآخر هل سيكون لهذا البلد أن يعي سياسته التاريخية ؟ أم اننا سنشهد بطئاً في التحول ؟ البلاد المستقبلية لا تفكر قط في المستقبل . لماذا ؟ لم تعد لروسيا سياسة ثورية . وستكون للصين سياستها الثورية طوال خمسين عاماً لتصنع الصين .

ذكرني كلامه بالقول السائر : « الأم الحزينة لأمبراطورية ميتة » . ولكن أياً كانت نظرته ، حافظت لهجته على تفاؤل لامبالٍ بالطاقة . وعاد الى الحركة التي اعتاد ان يمحو بها كل شيء .

ـ هل أتيح لك ان تشهد احد اجتماعات الهيبيين ؟

ـ اظن انها تمت خاصة في كاليفورنيا .

ـ تهمني هذه ، ما يريد الهيبيون بالضبط ؟

ـ انه نمط حياة . ايديولوجيتهم ـ كما من سبقوهم وسيلحقون بهم ـ ليست جوهرية : الشاذون منهم يدّعون الوجودية ، الهيبيون يدّعون الانتساب الى غاندي ، والرافضون ، الى تشي غيفارا . . . ثمة ايضاً العدمية . . ويلفت ، جداً ، قول تلك الطالبة في نانتير : « حين تعرف ماذا تريد ، تصير بورجوازياً » . شخصيات دوستويفسكي في « المعتوهون » ينحون هذا المنحى .

ـ وماذا تقيم ازاء « معرفة ما تريد » ؟

ـ العريزة . فأحداث أيار ولدت من زواج ثورة شيوعية ـ نقابية ـ حذرة ، وهيحان لاعقلاني لدى الشبيبة . وكل ذلك في غمامة من الحيالي التاريخي ، كما في كل مكان . . .

ـ عدا في روسيا .

ـ منذ بحارة كرونشتادت ، لم يعد للحيالي الفوضوي مكان في روسيا .

ـ العدميون الروس كانوا يرتكبون جرائم .

ـ وكان القيصر يقتلهم بدوره . تغير الجدّي كثيراً . والرس كانوا أعفّاء ولا يتعاطون المخدرات في المغامرة الحالية ، ثمة قطاع حسدي ، هو المعوِّض من هنا أن الثورة ، لدى العدميين ، كانت قيمة عليا ، تعاملوا معها ، كما قلت الآن سيدي الجنرال ، بواسطة التحرك الرافض . والثورة التي بها يحلم العدميون عندنا ، تنتمي الى ما أسميته الوهم الغنائي . وما يناهضون به المجتمع الاستهلاكي (وهو عندنا غير مستقر) ، ليس مجتمعاً آخر ، بل احتقارهم للقائم . لكن الاحتقار ليس قيمة عليا . مرة ، أحد الطلاب الكان يجري تحقيقاً بين الطلاب ، قال لي : ثمة ما هو أهم من الهيبيين والرافضين عدد الشبان الذين يقولون : « لا فرق . لا شيء يهم . الطموح موحود دائماً » . إنما حدثياً . كان يجب أن يأتيه نابوليون ، والنورحوازية والروايات والولايات المتحدة ، ليتوازى مع الحبّ ، ويصير هوس العصر الأول . لم يكن لجوليان سوريل شقيق اكبر فهل نحن نشهد انحساراً كبيراً للطموح ؟ ليس

اكثر من ١٠٪ من الطلاب مسيّسون .

ـ الاحتقار ، اللامبالاة ، الأخوّة . . . كان أوريول المسكين يقول : « اريد اكون رئيس جمهورية أخوية » . إذ للسياسي أن يكون خادماً ليصير سيداً . في العالم كله ، ثمـة ذوو النوايـا الطيّبة . مرّ الزمان ، ومرّ القدر . وعام ١٩١٤ ، عرفت فترة شباب مأخوذة بالفضول الذي يسبق المعارك الأولى . مع هذا كـانت تلك الفتـرة تحس بـدنـو المحصـدة ، فلم تلبث ان ماتت . . . وهكذا اليوم : ظنت الولايات المتحدة أن الديمقراطية ستحـلّ كل الأمـور ، وها هي اليـوم عاجـزة عن حل هـذه المسـألـة . ديمقـراطيتهـا هي المسـاواة ، وشعـور آخـر يضـع الديمقراطيات الانكلوساكسونية والسكندينافية فوق ديمقراطيتنا : عبادة الشرع . والشـرع هو الـدولة . في السيـاسة ، كـما في الدين ، لم يعرف اللاتينيون يوماً متى كانوا هم روما ، ومتى كانوا يتوهمون ذلك . هل قلت ان روما كانت نقيض الحركية المتوسطية ؟ .

*

انتقلنا الى الصالون ذي المقاعد الجلدية ، نحتسي القهوة ، فكانت الهرة غريغري سبقتنا الى احد المقاعد . أدلهمّ الغيم في الخارج ، فطغى العتم في الغـرفة . التفت إلـيّ الجنـرال وقال ببعض السخرية :

ـ الست أنت الذي دّرج كلمة ديغولية ؟ ما كنت تقصد بها في البدء؟

تغيرت لهجته من جديد . لم يعد الموضوع عن الهررة ولا عن

الاستراحة العيلية الكان يتكلم بها على غيفارا أو على نابوليون . وكما في ولائم الغداء الحميمة أيام الايليزيه ، احسست ان الاستراحة انتهت . فقلت :

ـ في البدء ، أيام المقاومة ، كنت أقصد بها : الأهواء السياسية الجامحة ، في خدمة فرنسا ، مقابل تيار : فرنسا في خدمة أهواء اليمين واليسار . بعدها ، صارت مجرد عاطفة . . . عاطفة أن دوافعك ، حسنة أو غير حسنة ، كانت غير دوافع السياسيين .

ـ حين رأيت السياسيين مجتمعين للمرة الأولى ، احسست انهم عدائيون للجميع . لم يؤمنوا بديكتاتوريتي ، لكنهم فهموا انني أمثل الدولة . سيان : فالدولة هي الشيطان الذي اذ ينوجد يمحون هم ، ويخسرون ما به يتمسكون : لا المال ، بل ممارسة ادّعاءاتهم . . .

ـ ولكنك لم تكن تسهّل لهم حياتهم : كانوا يعدون بهدايا ، فكنت تعدهم بالتضحيات . والفرنسيون ، طبيعتهم ، مناهضون للملكية ، وتنظيم التعليم الابتدائي منذ الجمهورية الثالثة ، ليس دون خلفيات . وهم مناهضون للسياسيين غالباً لأسباب سيئة . مرة قال لي غي موليه انه لا يكاد يملك ٨٠٠ ألف فرنك من ثمار عهوده ، وكان ذلك ، حتمًا ، صحيحاً . (حين كانت وزارته ووزارتي في المبنى نفسه : في الفندق المقابل لماتينيون ، كانت غرفتي هي غرفة الفرسان القديمة ، فيما كان هو في غرفة الكهنة) .

ـ اعترف ان كبار السياسيين اكثر صدقاً مما يُظن . خاصة في

حبهم للقصور الوطنية . حين عاد هريو ، شرح لي في خمس دقـائق ان عليه الالتحـاق بأوتيـل ـنساي المخصص لـرئاسـة المجلس . لم اوافق لأنه لم يكن رئيس المجلس . ولم يغفر لي ذلك في ما بعد .

ـ يبدو لي أن الفرنسيين لا يقدرون طويلاً إلا رجال السياسة المرصودين على هدف عظيم : فرنسا ، السلم ، كما كليمنصو وبريان ، وحتى بوانكاريه ، بسبب الحرب . أي الذين لا يكون تحديدهم بمجموعة طموحات وانتخابات وإعجاب .

ـ صحيح .

ـ قدمت للفرنسيين هبة لا يحلمـ ـ قط بها .. أن يتحبوا ، فيهم ، الجزء الأفضل . جعل التضحيـ شرعية ، لعله أعظم ما يمكن ان يقوم به إنسان . الشيوعيو ـ الى حد ، قاموا بذلك تجاه شعبهم .

ـ من هنا ، كان افصل ، أمام محاكمنا ، ـ يكون الحازم سالان ، لا البريء توخاتشفسكي ، في وجه محاكم ستالين . وأعترف ان اذا مات جود في سبيل فرنسا الجمهورية ، فلم يمت احد في سبيل الحزب الراديكالي . ومتعود فرنسا من حديد الى التسيّس .

ـ لكن فرنسا لم تكن يوماً من الناحيه السياسيه . كما فرنسا الصليبيين . وإلا فلماذا لاقاك شباب حزبية سياسية ؟ ونحن ؟ كنت تقول لنا اننـا في النهايـة سننتصـ ـ ـكنـ نفكر اننـا سنموت . وكان ديغوليو اليسار يأملون ـ ـ ـ آجلاً أم عاجلاً ، ستقوم ، في الحقل الإجتمـاعي ، ـ ـ ـ يتوقعـونه من

الشيوعيين ولا من الاشتراكيين . ومع هذا ، لم يتبعوك ، فقط ، من اجل ذلك . عام ١٩٤٠ ، كانت العدالة الاجتماعية حلماً بعيداً : ستالين حليف هتلر وهتلر في باريس . لكن الشيوعيين انضموا الينا في ما بعد ، حين شعروا أن الدفاع عن البروليتاريا المسحوقة يلتقي مع الدفاع عن فرنسا المسحوقة .

ـ ومع الدفاع عن روسيا .

ـ ان ما أعاق الديغولية عن بلوغ حجم القومية ، هو ضعفها . قوتك كانت في انك لم يكن لك شيء . لم يقم ديغوليون ليتبعوك . وان كان لي أحكم على الأمر ، من خلال الصحافيين الكانوا يأتون يستصرحونني ، فالقطاع الرئيسي لفرنسا المناضلة وللمقاومة كان بدأ يمحي : التيار المناهض للفاشية . انت آخر قائد مناهض للفاشية في الغرب . واكثر قدامى المحاربين في اسبانيا ، اسبانيين أو فرنسيين ، ممن تبعوك أيام المعاهدة الألمانية السوفياتية كانوا مستمرين في النضال ، بل دهشوا جداً حين لم يجدوا فرانكو ، بين هتلر وموسوليني .

ـ جيّد انك تذكر الأجانب إذ تتكلم على المقاومة السياسية لا الوطنية التي لولاها لما كان للأولى كبير وزن .

ـ لكنهم اكملوا معنا النضال ، عوض ان يلتحقوا بالجيش الاميركي . ولهذا معنى كبير . ولا أظن مؤرخاً في المستقبل يمكنه تفسير الديغولية بتعابير سياسية بحتة ، أو وطنية بحتة الديغولية ، كانت فرنسا ، مضافاً اليها أمر آخر . . . مرة ، حين وصل أحد اصدقائي الانكليز الى كاليه ، عام ١٩٤٥ ، وجد فوق رف البار الذي دخل اليه ، صورة لك . فسأله صاحب

البار : « هل أنت ديغولي ؟ » ، فأجابه صاحب البار : « انا لا أهتم للسياسة . . . والرجل لا يدوم اكثر من ثلاثين عـاماً ، وهذا الرجل أفضل من الجميع » . وكان القدر حملني الى الرحلة الأولى التي حُرمت إنشاد المارسلياز عام ١٩٥٠ . يومها ، كانت رحلة وزراء الجمهورية الرابعة . طلبت نوع نبيذ ، فنوعاً آخر ، ابتسم خازن الخمور وقال لي : « غيرت النوع كي لا ترسلني الى المستودع الأسفل ؟ ما همّ . سأذهب . أنا سعيد بخدمتك . بلادنا تفخر بكبار الأدباء ، لا بأولئك » . وأحسست ، سيدي الجنرال ، ان احد ابرز اسباب اعتباري ديغولياً مثالياً ، كوني لم أنتخب قط . حين قلتني ، عام ١٩٥٨ ، غريباً جداً ، قلت لي بين الجدّ والقهر : « كن وزيراً » ، فسألتك : « ولِمَ ؟ » . في الديغولية ، ثمة ما يفسَّر وما لا يفسَّر . وربما أفضل عنـوان لكتاب تكريمي ، عنك ، عنوان كتاب سوستيل : « إزاء وضد كل شيء » . كنت وحدك يوم ١٨ حزيران ، وها أنت اليوم وحدك .

قلت له هذا ، وأنا أعتقد أن « لا » المنفرد ، ترشح دائماً حولها . فقال :

ـ كان الجميع ضـدي كلما كنت على حق . اعتـدت على هذا .

ـ قلت ان جنودنا ما كانوا ليموتوا عن الحزب الـراديكالي صحيح . لكن ضحايانا في معسكرات الإبادة ، ما كانوا ليموتوا عن انتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع العام . وانني اتخذ المثال الأرفع . . .

ابتسم في مرارة . ان له عبقرية الفطرة ، ولكن له كذلك حسّ القسوة والعنف . . اتذكر دهشته حين ، في موضوع انخفاض الفرنك ، قلت أمام الوزراء ما به يفكر . كان دائمًا يتكلم الأخير . يومها قلت : « أريد ان أفهم ، والديغولية دفاع البلاد ضدّ المضاربين في التجارة ، كما ضدّ الكثيرين غيرهم ، كيف تقبل بالانخفاض ، فيما الخبراء يؤكدون إمكان تجنبه » . ثم قلت بانفعال : « لا يمكن مصير فرنسا ان يحتمل حرب الجزائر إلا اذا انتهت بمعاهدة »

وفي ايار ١٩٦٨ ، قلت : « الذهاب الى الشانزيليزيه يلزمنا ، في خطر ، إن لم نكن عديدين . ولكن قد نصبح مليوناً . وعلينا ان نحاول » طبعاً ، لم يكن في حاجة إليّ كي يفكر بذلك لكنه كان سعيداً بسماع ذلك .

كان الجنرال ينظر الى الطاولة امامه ، حين قالت السيدة ، ديغول :

ـ خلال اشهر راقبنا النجاحات والسقطات . ودائمًا النسبة نفسها .

رفع الجنرال عينيه ، فكان في نظره ، كما في صوته ، البطء الذي أعرفه . قال :

ـ وماذا حلّ بكل ذلك في ما بعد ؟ .

توارد الأفكار ، مرة اخرى . « في ما بعد » يقصد بها : بعد وفاته . ذات يوم ، كان قال لي بلهجة فيها من الوسوسة اكثر مما فيها عنفوان : « ان قامت انتفاضة جديدة ، فلتكمل ما به بدأت

لا ما إليه يكون وصل غيري » . تراه ، يومها ، كان يفكر في مصيره ؟ (لأن حياته لم تعد تهمه) هل هذه صورة عن الارادة الفرنسية ؟ على كل ، كليمنصو كان هكذا . وفي المكتبة أمامي ، لمحت الغلاف المثلث الألوان ، لكتاب : « عظمة انتصار وبؤسه » . قلت له :

ـ ماذا تقول اليوم في كليمنصو ؟ .

ـ كان يكرههم كثيراً . إنما كان يؤمن بالقدر . تذكر حواره ، يوم قال له اللويد جورج : « فرانشيه ديسبيري حالفه الحظ » ، فأجابه كليمنصو : « عظيم .. كم من الناس يفتقرون الى الحظ » . لا أعتقد ان الحظ موجود ، لكن العكس موجود حتماً . وغضبه يعبّر عن غضب فرنسا . وعام ١٩١٨ قال في ما يُظَنُّ اليوم انه خطابه الأول كرئيس وزراء : « في السياسة الخارجية أعلن الحرب . تخوننا روسيا وأعلن الحرب : أمام باريس ، في باريس ، خلف باريس . وهذا كافٍ » . وكان قوله رائعاً . . . كان يعرف الفرنسيين . تأمل المشهد الكان أمامك هذا الصباح . موقف قوي . لكن فرسنجيتوريكس خسره . كان عليه كل يوم ان يستقبل نقابات ورافضين .

ـ لكن كليمنصو حاول جاداً ان يسوّي المسألة . . .

ـ وبأية نتيجة ؟ بمطاردة النمور ؟

ـ زاهاروف ـ وكان أعطاه سيارته الروس رويس ، لم يكن يتخذ معاونين إلاّ من تجهم قططه . فكانوا يضعون بعض الناردين في اسفل بنطلوناتهم . ربما كان اغواء القطط أسهل من ستهواء التاريخ . . . ما تقولين في هذا يا غريغري ؟ .

ـ غريب ان يتخلى كليمنصو فجأة عن السياسة . التاريخ يغيّر الرجال ، أحياناً . لكنه حافظ على غضبه . ومات على كره فوش ، الذي سوّى معه حساباته ، وعلى كره بوانكاريه الذي لم يكن سوى سوّى معه حساباته . مرة ، قال له فيليب برتلو (وكان دافع عنه أمام بوانكاريه) : « انت شرس كثيراً سيدي الرئيس » فأجابه : « تزوجت امرأة خانتني ، ورزقت أولاداً تخلوا عني ، وعرفت أصدقاء طعنوني . تبقى لي يداي المريضتان ، ولن اتخلى عن قفّازيّ ، ولم يبق لي سوى فكين ، وبهما يمكنني ان أعض » . أضاف برتلو : « ذكرني بالجنرال دوراكين : دائمًا على غضب ، وليس من يعرف السبب » . وهذه أقوال باريسية . . . لكن كليمنصو تجاسر أن يقول للنواب : « اطردوني من المنصة ، إن كان ما تطلبونه ليس في خدمة فرنسا . لأنني لن ألبّيه لكم » . وهو قال للجنرال كوليدج : « تعال الى قرانا واقرأ لائحة الضحايا ، وقارن » . وكان قال مرة وحده : « أود ان يتجاسر الشعب الفرنسي ويتكلّ على نفسه . كان الفرنسيون عظماء دون ان يدركوا ، فلما هبطوا لم يعودوا يصدّقون انهم هبطوا » .

في الخارج ، هب هواء عاصف راح يغزل شرائح الثلج ، مما ذكرني بالمشهد نفسه وأنا في قصر « المصباح » اعيد كتابة أقوال العرافة التي انبأتني عن الاسكندر . بعد برهة قلت :

ـ تيميستوكل مات في خدمة بلاد فارس . وكان كلود مونيه يستشهد بعبارة فخورة من كليمنصو : الفخار للذين لا يخفضون أبصارهم أمام القدر . . . هل عرفت بوانكاريه ، سيدي الجنرال ؟ .

ـ كنت في المحطة الشرقية عام ١٩١٤ ، حين وصل يشهد انطلاق القطارات العسكرية الأولى . لم يصفق ، يومها ، أحد .

وعدت بالبال الى مشهد الكابتن ديغول في تلك المحطة . . . فكّرتُ بالرماحين يدورون في ليل آردين غداة إعـلان الحرب العالمية الأولى .

هل يكون المستقبل كما وصفه صاحب البار في كاليه ؟ ستالين يستعيد بطرس الأكبـر ، وجمهوريـونا ، عـلى رأسهم ميشليه ، يستعيدون جاندارك . التحاليل العقلانية سريعة الانكسار . هل كان يكفي عرض الوقائع حقيقية من الاذاعة ، ليفهم روزفلت (رغم عدائيته) وهتلر ان جثة فرنسا يمكن ان تستعاد وتبعث حية ؟ ماذا حملت الاذاعة الى الجنرال جيرو ؟ كيف كان له ان يقول : « فرنسا تنزف على الأرض ، لكنها تعرف وتحسّ انها ستحيا حياة عميقة وقوية » . وكيف ، من جهة اخرى ، يمكن تحـديد العمـل التاريخي القـام به غـاندي من خـلال العمل السياسي ؟ والتاريخ الذي يجسده الجنرال ، الى أيّ حدّ يجسّد القدر ؟ وماذا كان يمكن ان يحصل ، بعد لقاء بوردو ، لو رضي هيريو باللجوء الى لندن ؟ أو لو كان نوغيس قَبِل قيادة فرنسا الحرة ؟ أو لو لم يضع فيشي الماسونية خارج القَانـون ، مثيراً نصف افريقيا الفرنسية لدى الديغوليين ؟ أو لـو انتقل بيتـان بالطائرة الى الجزائر ؟ أو لو هتلر كان وجد القنبلة الذرية قبل الاميـركان ؟ إن حـذاقة الجنـرال ديغول السيـاسيـة لم تتحكم بقدره . بينما اقدار سان جوست وجاندارك وفريديريـك الثاني (معجزة براندنبور) وماو ، كانت تهزني كما أقدار الأشخاص الملهمين المرصودين . اثنان كان يمكن ان يقطعا الطريق عـلى

بونابرت : سان جوست (مات على المقصلة) وهوش (مات مسموماً) .

عام ١٩٥٨ ، كُلفت بحماية الجنرال . كنا نعرف ان قد تُطلَق عليه النار من أحد منازل ساحة النجمة حين يكون متأهباً أمام قوس النصر خلال عزف المارسيلياز . وحين دخلتُ مكتب جورج بومبيدو ، رئيس الوزراء عهدئذٍ ، كان يقول لأحدهم أشيب الشعر : « ملوك فرنسا الذين اغتيلوا ، قلّة : هنري الثالث ، هنري الرابع » . . . فأجاب الأشيب : « صحيح ، ولكنهم كانوا الذين يريدون توحيد الفرنسيين » . . . وحين سألت بومبيدو عنه ، قال لي انه مدير البوليس .

قلت للجنرال :

- مهما يكن ، سيدي الجنرال ، إن صادفنا شيء من اخصامنا ، يعجب حتى الله نفسه .

- أي أخصام ؟ الشيوعيون أم الاشتراكيون ؟ أم النقابات العاجزة عن ان تكون على حجم فرنسا ؟ كل هؤلاء ، وفرديناند لوب ، في منزلة واحدة . . . في عقم واحد : الافتخار بقوة ماوتسي تونغ أو ببطولة غيفارا . المسيرة الطويلة للوصول الى شارلتي ؟ ما هذه المهزلة . . .

- خلال الاستفتاء ، قال رئيس الحكومة - وهو فرنسي حرّ - لأحد المسؤولين المناهضين للديغولية : « مع الأسف ، اذا استعفى مالرو ، يجب تسويد الانصاب من جديد » . فأجابه الآخر : « لا يهمّ . سنضع خطة . ويكون لدينا الوقت » . وكم تلقت الحكومة الكنت فيها ، رسائل شتم تندّد بتبذير اموال

المكلفين تغيير لون باريس ، بقشر زنجار العصور ، فيما حجارة بيوت باريس ، كما بيوت فرساي ، مزنجرة برتقالياً ، لا سوداء . وفي أي حال ، لم يستبدلوك ببوهير . . . أما أخلافك . . .

- لا أخلاف لي ، انت تعرف . لم يعد الشيوعيون يؤمنون كثيراً بالشيوعية ، ولا الآخرون بالثورة . فاتهم القطار . لشدة ما كذبوا وهم يدّعون الديمقراطية ، صاروا ديمقراطيين . وصاروا يريدون تهديد السلطة ، لا الاستيلاء عليها . وإلا ، لست أرى لماذا لا يكون نظام اقتصادي كالشيوعية ، افضل من آخر كالرأسمالية ؟ . أفهم الاميركي الذي يقول إن دوائر البريد يجب ان تؤول الى شركات خاصة كالهاتف . كما أفهم كيف المؤسسات الحرة تؤمن الضمان الإجتماعي . ولكن لو كان عليها ان تجابه قنبلة ذرية ، ولا يمكنها ذلك دون الدولة ، تجاه الاتحاد السوفياتي أو الصين ، ماذا كانت تفعل ؟ كما لا أفهم لِمَ لَم يكن عليّ أن اتباحث مع الشيوعيين حين كانوا جزءاً من فرنسا لا جزيرةً فيها ؟ مرة قلت لتوريز : « انت اخترت . انا ، لا حق لي بالاختيار » . طبعاً لم يوافقني على رأيي لكنه فهم ، هو الآخر . وحتى لكي انتصر ، لا أريد ان اجابه ، بل ان اجمع . . . أيام التحرير ، فعلت ذلك . لذلك ، لن اكون يوماً ملكياً ، مهما قال المهتاجون . لن يكون توحيد لفرنسا حول العيلة المالكة ، ولا حول الطبقة العاملة . ليس للشيوعيين الفرنسيين سوى كلمة « ملموس » على شفاههم ، مع انهم اكثر الأحزاب خيالية في العالم . ودعايتهم لاحقتهم حتى اقنعوا الكثيرين . لكنهم ينسون شيئاً واحداً مهمّاً : لا أهمية لكل ما

يقولون . وذات يوم ، ذكرت « الأومـانيتيه »(جـريدتهم) انني اجتمعت بتورير خلال المقاومة .

ـ لا فائدة من السطو على هالات الأساطير ، لأن الاسطورة تنشلّ حين تنفصل عن مصدرها . وثورة اوكتوبر صارت بعيدة ، سيّدي الجنرال . . .

ـ لا يمكن ، عندنا ، تأسيس شيء ثابت ، على الكذب . هذا واقع اكيد . ولكن ، رغم المظاهر تبقى الشيوعية الروسية هي الأقل خداعاً ، لأن قيامة روسيا ليست كذبة .

فهمت انه يلمح ، في هذا ، الى احد اوائل حواراتنا ، حين قلت له إن الشيوعية في نظري تستمد قوة كبيرة من كونها أعطت روسيا الدور الذي لم تكن لتجده في الأنظمة التقليدية أو في البلدان الغربية أو في الجامعة السلافية . ثم أضفت على كلامه :

ـ . . . ولأن المشكلة الاجتماعية تتنامى . فثمة في الشيوعية مهزلة مستعصية : ارادة تحويل الأخصام الى مجرمين ، مما أبعد المثقفين عن الحزب ، وليس في الاتحاد السوفياتي فقط . فعندنا كذلك ، قد تصير الشيـوعية ، بـين سواهـا ، ما تصـير عليه الأحزاب · اسطورة في خدمة مجتمع تعاضدي .

ـ الفـرنسيون ، كـما تعرف ، يصعب عليهم التصرف بين رغبتهم في التمايزات ، وذوقهم في المساواة . ولكن ، وسط هذا العالم الجميل ، لم يكن لي سـوى خصم واحد ، هـو خصم فرنسا : المال .

ـ المثقفون ليسوا فقط قراء النوفيل أوبسرفاتور .

ـ حتى هؤلاء كانوا معي . انت كتبت أن « النفوس المرهفة » لم تولد ولم تمت عام ١٧٨٨ ، وأن كل التاريخ ليس منفصلاً عن خيال تاريخي . مع ان « نفوسنا المرهفة » اتهمتني موراسيا حين كنت اقيم الجمهورية ، ومستعمراً حين كنت أوجد وحدة فرنسا ، وامبرياليا حين رحت أزرع السلام في الجزائر . فهل تتصور موراس يناضل ليفرض انتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع العام ؟ وهل ترى « اليمين » مسروراً بالتأميم ، وسعيداً بقراراتي عن الجزائر وقراراتك عن الضمان الاجتماعي ؟ عام ١٩٥٨ ، كنا فاشيين ، كما تعرف ، وتتذكر عبارة نسبت إليك : « متى كانت الديكتاتورية تخضع لدورة انتخابية ثانية ؟ » .

ـ وقلت أيضاً : « متى الديكتاتور تهاجمه الصحافة ؟ » لو جاء المؤرخون يكتبون تاريخك من خلال الصحف ، لجاء خيبة .

أعود الى ٤ أيلول ، ساحة الجمهورية ، حيث لفظت خطاباً مهدت فيه له كي يعلن دستوره . كانت الصرخات المعادية الآتية من بعيد ، تضع في الساحة ، فيما الجنرال يعلن : « وهكذا ، وسط القلق الوطني العام ، والحرب الغريبة ، ظهرت الجمهورية . وكانت سيادة الشعب ، ونداء الحرية ورجاء العدالة . وكان عليها ان تبقى كذلك خلال المراحل المضطربة من تاريخها . واليوم ، اكثر من أي وقت آخر ، نريدها تبقى » . عندها ، ارتفعت في الفضاء بالونات الأطفال ، حاملة لافتات تعلن ان الفاشية لن تمر .

عاد الجنرال يخاطبني :

ـ كبار أدباء فرنسا في القرن الثامن عشر ، كانوا أنبياء . لكن ما بدأ درامياً ، انتهى ، أيضاً وأيضاً ، إلى مهزلة ، لأن المثقفين ـ حتى اذ

يحبون مثلي الأمجاد ـ هم في خدمة شيء يتخطاهم .

أتذكر ان كامو ، خلال عبور الصحراء ، سأله عن كيف يمكن في رأيه لأديب ان يخدم فرنسا ، فأجابه : « كل اديب يكتب ، ويكتب جيداً ، يخدم فرنسا » .

قلت له :

ـ ثمة فنانون ديغوليون : بالأمس براك ولوكوربوزييه ، واليوم شاغال - وبالتوس . وثمة غيرهم بعد .

ـ ومن تسمّيه الفنان الديغولي ؟

ـ الفنان الذي يدافع عنك .

ـ عظيم : انت تعرف معزوفة الآخرين ، اننا نضع فرنسا عالية جداً . كما لو كانوا يجهلون ما في التواضع من ضعف . مثقفونا وفنانونا يهزون العالم . شاهدت على الشاشة الصغيرة ، المأتم الذي نظمتموه لكوربوزييه حتى استحالت ساحة اللوفر المربعة بيضاء تحت الأضواء الساطعة ، ولفتني مجيء سفيري اليونان والهند بالأكاليل . . . واذكر البرقية التي وصلتني من الحكومة الهندية : « إن الهند ، وهي تضم العاصمة التي بناها لوكوربوزييه ، تأتي لتسكب على رفاته مياه الغانج ، تكريماً . لذكراه » . واتذكر نهاية كلمة رثائك « الوداع يا معلمي القديم . . . الوداع يا صديقي القديم » . هل تـذكر الباقي ؟ .

ـ أجل . . . يومها قلت : « الوداع يا معلمي القديم ، يا صديقي القديم . . . طابت ليلتك . . . هوذا تكريم المدن العريقة ، في أزهار نيويورك وبرازيليا . . . هي ذي مياه الغانج المقدسة ، وأرض

الأكروبول . . . » وهكذا ، يا سيدي الجنرال ، تجد ان « نفوسنا المرهفة » تستبعد هذا الميراث . (في وداعه ، كما كوربو الذي رفضه الأكاديميون) ، لكن لهم جميعهم آباء كنيسة ، وجميعهم على صعوبة في المصالحة : فرويد ، ماركس ، بروست ، كفكا ، . . . إنهم قوم من الأخصام تصبح مصالحتهم صعبة حين ننسى ان المقاهي الكانوا يجتمعون فيها لم تكن لها سوى تلك الأحاديث . . .

قلت هكذا ، وفكرت بفرويدو ـ ماركسية ماكس توريس . . . فأجاب الجنرال :

ـ ديسنوس ، و . . ما أسمه ، الآخر : ديبورد ؟ ماتا على نبالة . لماذا لم يعد المثقفون يؤمنون بفرنسا ؟ .

ـ وهل هم آمنوا بها عميقاً ؟ في العصور الوسطى ـ كانت فرنسا ـ الغير موجودة عصرئذٍ ـ موضوع أغانٍ حزينة . . . جاندارك نفسها ، ماذا يبقى منها بعد خمسين عاماً على غيابها ؟ وكذلك فولتير . آمنوا بالملك أو كرهوه . رجل ذكي كما ديدرو ، كان يرى الحرية متجسدة في كاترين ملكة روسيا . من هنا أن دور الأهواء السلبية لدى المثقفين ، كبير ، كما ، على أيامنا هذه ، ظن الذين يكرهون هتلر ، أنهم معك . وإن لبعض الوقت ، إضافة الى معتقدات اليسار . على ان مثقفينا ، في اكثرهم ، متأدبون ، تتوقف أيديولوجيتهم على عواطفهم . وإلا فلماذا الروائي يفهم الأحداث أو التاريخ أفضل من الرسام أو الموسيقي ؟ نيتشه قال ان العدمية (العبثية في تعبيري) منذ ١٨٦٠ ، طالت تدريجياً جميع الفنانين . ومنذئذٍ ، إذا بالعبقرية ، منذ بودلير حتى أيامنا ، تتجّه عدمية في نسبة مرتفعة جداً .

ـ صحيح ان الصراع اختلف مع اللافاشية والمقاومة . لكن مثقفينا

يريدون ان ما يسمونه الفكر ، يطغى على الأمة (وصولاً الى أيار ٦٨) . أنا أريد حماية حرية الفكر ، ضمن حدود ركائزها : الحقيقة الوطنية ، وهي واقع لا تقوم بدونه . فولتير اكثر تعلقاً بفرنسا منه بالمنطق . المثقفون تستهويهم النوايا ، ونحن تهمنا النتائج . كيف الوصول ؟ بواسطة المآدب ؟ .

ـ والتفت ينظر الى الثلج يتساقط في الخارج . تراه ينتمي الى عصرنا ، أم الى ماضٍ تنتمي اليه اليوم قامته العملاقة ؟ .

يرى بومبيدو أن المآدب ضرورية لجمع الناس . هل كان على خطأ ؟ مرة دعوت أديناور الى مأدبة ، ولم أكن أعرفه قط . كونك تقدم اللحمة نفسها الى ناس يتكارهون لأنهم لم يتعارفوا ، أمر يحولهم الى خراف . وإلا لكان اليمين واليسار التقيا قبل قرن كامل . واعلم انني لا اتحاشى النظريات السياسية من حيث المبدأ ، انما من حيث الذكرى . حين الجبهة الشعبية وصلت الى الحكم ، فكرت : بما أن عليهم محاربة الفاشية . سيرغمون على الدفاع عن فرنسا ، أي على تهيئة جيش حديث . وكنت أعرف لاغرانج ، أحد قلائل البرلمانيين الذين التحقوا بالقتال وماتوا خلاله . ما الذي جرى ؟ كوّنت الجبهة الشعبية جيش فرنسا لعام ١٩١٨ ، حين النازية تقسم البلاد . .

ـ لكن الجبهة الشعبية حققت عدة معجزات .

ـ معجزات لولاي كان محاها هتلر وفيشي الحكومة الروسية ناضلت من أجل موضوع أساسي . وكذلك هتلر . منذ اليونان القديمة ، والمنطقة المتوسطية تتخذ الخطابات إصلاحات . كل ما فعلناه ، نريد نسيانه . أيام السوق الأوروبية المشتركة ، اذ كنا بين الست دول ، مع حمل زراعتنا دون مقايضة ، كان أمراً خطيراً . لكن

فرنسا تبقى بنت الاسطورة . . . أو ما تسمية انت أسطورة . . . ربما أنا نفسي كنت اسطورة ذات يوم . . . يتصور المؤرخون أن يمكننا القيام بما نريد ، حين نكون في الحكم . لويس الرابع عشر كان يتذمر من انه لم يكن يطاع في أوفرني ، فيما لقي لاجئون مقراً لدى الحاكم متهمون بقضية السموم . نابوليون كان يتذمر من أنه لم يكن يطاع في أورليان إلّا اذا ذهب اليها . وأنا لم أتوصل الى بناء مبان ملائمة . كنت أريد بعث فرنسا ، وتوصلت ولو جزئياً . أما التفاصيل ، فالله يعلم ما لديه منها ، ويشرح لماذا اليساريون يدعون يساريين تميّزاً لهم عن الشيوعيين ، ولماذا يدعون هكذا في حين اليسار نفسه لم يعد موجوداً .

ـ هذا اليسار يسكنه خيال تاريخي هائج . لدى البلدان المتوسطية ، تتعلق السياسة بالمسرح . والخيال يأتي تارة مع الشخص ، وطوراً ينقلب ضده .

ـ صحيح قلت لك ، إنه كان معي طويلاً حتى تحولت تان تان . .

ـ ولكن اذا كان اليسار شيئاً آخر غير المهزلة ، فلأنه كان نقيض اليمين الكان مالاً وحسب .

ـ ولم تعد لليمين عقيدة منذ انفصل عن مفهوم الأمة . أي منذ استعاد الشيوعيون ميراث روما الكانت تتقاسمه مع الجيش والكنيسة والدولة ، فيما الشيوعيون لم يكونوا الكنيسة ، وكانوا يحاولون اغراق الجيش والسيطرة على الدولة .

ـ اليمين الحقيقي لا يمكنه يكون الا سرياً . وأسطورة اليسار الحقيقية كانت هي نفسها أسطورة ديغولية ١٩٤٠ : الدفاع عن المهزومين . وهي عقيدة برّرت تباعاً : التقليديين ، وثوريي ١٨٤٨ ، وأنصار الثورات العامية ، والراديكاليين ، والبولشيفيين ويساريي

آيار . . . إن الاسطورة السياسية ميدان انفعالات تسكن في خبايا الأفكار . . .

ـ حاولت كومونة باريس نهضة فرنسا. بهذا المستوى، كونت جزءاً من تاريخنا . لكنها لم تقتل بروسيا واحداً . .

ـ الكومونة نظراً اليها المثقفون في صوابية ، لكنها أخطأوا النظر الى ثورة ١٨٤٨ . مع أن المثالية المتطرفة سابقة لـ ١٨٤٨ : عرفها روسو وسان جوست . وهكذا ، صار الخيال التاريخي أحد العناصر الرئيسية في عصرنا .

فكر الجنرال برهة وأجاب :

ـ اذا استبعدته كلياً ، ما يحلّ بالماركسية ؟

ـ الملكية الجماعية لوسائل الانتاج ... لكن هدف نفوسنا المرهفة ليس السيطرة على السلطة ، بل على الأوديون .

ـ صحيح . عند اعلان التحرير كان جماعة السياسيين يعتبرونني هاوي سياسة . وكنت أعرفهم جميعهم . الثوري الوحيد بينهم هو أنا . طبعاً، كان الشيوعيون اليعتبرون الكلمة هي استيلاء حزبهم على السلطة . ومع هذا ، بعد سنوات من ذلك ، في أيار ١٩٦٨ ، قال رئيسهم لوزير داخليتنا : « لا تستلموا » . .

ـ أية كلمة رئيسية لا تستمد قوتها من معان متناقضة ؟الثورة ، الله، الحب ، التاريخ . . . الله يعني الخالق ، الحكم ، الحب المقدس ، سر العالم ، . . . اتجاوز ذلك . .

ـ ليس من الضروري تحديد الله ، بل ما نريد تغييره ، والوسائل التي بها ننهد الى هذا التغيير . وأتساءل ، كما كل واحد ، بحول

العصور الكبرى المظلمة في التاريخ . من زمان حاولت أن أفهم ما الذي كان ، في بيزنطية ، يفصل الزرق عن الحصر عبثاً . عندها ، فهمت روما .

ـ قد تكون روما صعبة الفهم . وكذلك ثورة أوكتوبر . وكذلك ذنب متهمي موسكو . ومثلها ظاهرة اللافتات في أيار « فلننتقم لموتانا » ولم يكن بعد من ضحايا . ومثلها أن يكون ماوتسي توبغ يمثل الحرية ، بعدما كان للكثيرين ، الرجل ذا السكين بين أسنانه . . . أود أن أفهم ساحرات هذا العصر . . .

ـ اكتب تاريخ الخرافات . هذا موضوع جيد .

ـ مع أن تدمير الرأسمالية لم يكن يوماً رئيسياً لديك . .

ـ لم آت يوماً لتدمير الرأسمالية . مع أنني لم أدافع يوماً عنها . جئت لإقامة فرنسا في وجه الخرافات الكائنت تتسلها . هل كان لينين الأممي يعرف انه جاء لاقامة روسيا ؟ السياسة ، هي وضع الخرافات في نصابها التاريخي . لا شيء جدياً مع الخضوع للحرافات ، ولكن لا شيء كبيراً بدونها . . . مع أن الخرافات (الأوهام) شيء غير موجود اذن فرنسا ليست خرافة . ولا روسيا . ولا لينين . ولا ستالين . ولا موسوليني . الخرافة ، هي ماركسية المثقفين الذين لم يقرأوا ماركس . ذوو النفوس المرهفة قرأوا حتماً كثيراً من جان جاك روسو ، لكنهم لم يقرأوا « العقد الاجتماعي » . رغم الأسطورة فيه ، يبقى كتاباً قوياً .

ـ الأساطير لا تتتالى في الميدان السياسى فقط .

ـ هل صادفت مرة كاهن كولومبي ؟ انه كاهن طيب قال لي عن المسحة الأخيرة : « دائماً كنت أجدني في الموقف نفسه ، حاصة مع

السيدان : سيدي الكاهن ، سأعمل بما تقوله لي ، انما لا أهمية كبيرة له . لم أؤذ يوماً أحداً ، فالله لن يطردني ، أليس كذلك ؟ « . . . من هنا ، أقرّ بتثبيت ما به يؤمن الكاثوليك ، ولا يعرفون به عندما يموتون . معه حق هذا الكاهن : المسيحيون المؤمنون بأن الله يستقبل الذين لم يؤذوا أحداً اكثر من الذين يؤمنون بالجحيم . لكل أيمانه الخاص : الماركسيون كما المسيحيون . مع أن الفرق بينهما كبير .

أعرف أن للكنيسة جزءاً كبيراً في حياة الجنرال . ومع هذا ، قال للبابا : « والآن حضرة الأب الأقدس ، هل تتكلم على فرنسا ؟ » لم يذكر الله إلا نادراً ، حتى في وصيته . ولم يذكر المسيح قط . وأعرف صمته حيال مواضيع رئيسية ، نابعاً من خجل أو تكبر ، أن كنا نسمي تكبراً . حقه في الصمت . أن يتناول القربان المقدس في موسكو ، فهو يؤدي شهادة . لكنه لم يفعل ذلك الا في موسكو . وحين ايمانه لا يبدو لي لغزاً ، أراه عميقاً لا يترك مجالا لشك . لذلك لم يكن يزعجه مذهب لا ادريّتي ، اذ إنني لست ضد الاكليروس ولا ضد المسيحية فيما هذه حال المثقفين من جيلي وعكس الذين من جيله : شارل بيغي ، فرنسيس جيمس ، بول كلوديل . . . . واللاأدرية المواكبة للمسيحية ، تقلقه اكثر مما تزعجه ، وان هو صديق مقرب من الهندوسية . ايمانه ليس مسألة بل ثابتة كما فرنسا . لكنه يحب الكلام على فرنساه ، فيما لا يحب الكلام على إيمانه ، الذي يغطي ميداناً سرياً هو ميدان المسيح ، وسؤالاً لا عن الايمان بل عن أشكاله . من هنا استغرابه حين ذكرت له العبارة الهندوسية : « كل إنسان يذهب الى الله عن طريق آلهته هو » . وذات يوم سألني : « من تعني لك الآثار الدينية للعباقرة كما بيتهوفن وفيكتور هوغو ، وايمانهما كان غامضاً ، وهما لم يكونوا فولتيريّين ؟ » .

وذات يوم ـ أحد أقرب مساعديه ، وكان مكلفاً بجمع وثائق قد يحتاجها الجنرال لإلقاء خطاب ، (في كندا ، أظن) سأله في خجل :

ـ أعتقد سيدي ، ستختم خطابك حول الارادة الالهية : هي ذي الوثائق جاهزة .

ـ أشكرك . . . لست خائفاً من الله . . .

وهو طبعاً يقصد : « وهل تعتقدني سأبعد ذكر الله ؟ » . لكن فرويد ، لم يكن ليستهين بالشكل الذي يتخذه إيمانه .

واستعدت الكلام :

ـ أندريه جيد ، في آخر حياته ، كان يتمسك بفكرة خاصة : « الذين ، عندي ، استمرار للاخلاق ». وكان في بدء حياته ، يؤمن عكس ذلك .

ـ الخطيئة ليست مهمة . الأخلاق الصحيحة توجه الانسان نحو ما يحمله من عظمة ، وإن تكن هذه غير مهمة . حين قلت : انني جئت لتحرير فرنسا من الخرافات التي تمنعها من أن تكون فرنسا ، فهموني مع أن تلك الخرافات كانت ثابتة ومؤثرة عميقاً . لا تدور حول التاريخ كالذباب ، بل تتتالى . وتتماوج من يسارية اليساريين حتى أحاسيس ذوي النفوس المرهفة . . . أمس ، وكنت أتنزه ، مرّ على قدمي خيال الغيوم ، ففكرت أن الخرافات جزء من الانسانية كما الغيوم جزء من السماء . ولكن ، هل الخرافات تتتالى كما الغيوم أو النباتات ؟ أمام الأشجار الباسقة التي تمر بها وانت داخل ، تحت ، على المدخل ، أفكر بتاريخ الأمم . وهو عكس الغيوم . وتسلم مسؤولية فرنسا ، لعام ١٩٤٠ لم يكن مجرد عمل بستاني .

خيّم علينا ظل ماكس توريس ، وفرويدو ـ ماركسيته . مع أن الأعشاب المائية للبروفسور بركلي لا تلتقي وغيوم قائد فرنسا الحرة . كما لو أن هذه الصورة تتجسد في الذين يستخدمونها تدريجاً . كما لو انها تتقدمنا دائماً . كما لو أننا نعكس ، لدى مرورنا في الحياة ، الظل المجهول نفسه .

وعاد الجنرال الى الكلام :

ـ مع هذا ، يجب ان نفهم ما قمنا به .

ـ ما قمت أنت به .

ـ ما اقوم به لم يتحدّد مرة بما قمت به . وخاصة لا بـ ١٨ حزيران . المهم ـ ربما كما لدى جميع الذين ارتبط اسمهم بالتاريخ ـ لم يكن ما كنت أقوله ، بل الأمل الذي كنت أحمله . أعدت فرنسا لأنني أعدت أمل العالم بفرنسا . فكيف يمكن التعلق برسالة دون أمل ؟ غداً ، يوم أموت ، يتغير هذا الأمل ، لأن قوته كامنة في مستقبلنا الذي ، طبعاً ، لن يعود مستقبلاً . لكنني لا أخشى ان يندثر هذا الأمل كلياً . فالمؤسسة غلاف : نغير ما في داخلها . وحين ما في داخلها مهم ، لن يرميه أحد في سلة المهملات . لكن هذا الذي يهم ، لا يمكن التكهن سلفاً به . رجل التاريخ ، خميرة ، حبة قمح . . شجرة الكستناء ، ليست الكستناء . لو أن الذي فعلته لم يحمل في ذاته أملاً ، كيف كنت فعلته ؟ كان الفعل والأمل متلازمين كانما الأمل لا يصح إلّا على البشر . . . ولدى الفرد ، نهاية الأمل هي بداية الموت . . . قد تكون على حق في قولك إن الديغولية ، لدى الكثيرين ، كانت تحدد بما يفصلهم عن السياسيين . انما ، عندي أنا حين ارتضيت الكلمة ، في ما بعد ، كان وطننا في عز انطلاقه ، الانطلاق المستعاد . من هنا ،

سأعنون الجزء الأول من مذكراتي : « مذكرات الأمل » . وما زلت بعيداً عن تحضير الجزء الثاني ، ولا مجال للكلام على الجزء الثالث ، بالشعور نفسه . كل ما فعلناه ، سيتحول وأريد أن يبقى شهادة : « هذا ما أردته . هذا ، ولا شيء سواه » . لهذا ، لم يعد لي وزراء سوى الغيوم والشجر والكتب .

ـ تعرف عبارة : « ارتجاف الغصن على السماء ، أهم من هتلر » .

ـ ومن السرطان ، حتماً ، حين لا يكون فيك ولا في أحد محبب إليك . انها عبارة نسوية .

ـ لكن قائلها رجل . . .

ـ كان هتلر يقولها للكانوا يفضلون الدفاع بالأغصان بدل المصفحات . لكنني افهم ما يعني بها . . . منذ أشتهر ، رأيت أغصاناً كثيرة .

ـ يمكن التعلق بالحياة ، وإن هي ليست للكائنات البشرية وحدها . . .

ـ يمكن التعلق بالحياة ، وإن هي ليست للكائنات البشرية وحدها . . .

ـ أحب الأشجار ، والحطابين . لم يكن الغصن أهم من هتلر ، عند رفاقنا في معسكرات الإبادة . والعمل التاريخي ليس فقط عمل فرد ، حتى لو كان هذا الفرد نابوليون . فهذا العمل يستهلك أعمق الأهواء لدى الكثيرين : الحزن والأمل . فكيف لا تطل الاشجار الى المخيلة في هذه الحالة ؟ وعلى أي حال ، عمر فرنسا أعتق من أعتق غصن في أية ساحة من ساحاتها . فلا نقعن في سذجة الأخذ

بخلود الأغصان . . . هل تعرف الحوار الذي دار بين بسمارك ومولتكه الكان في الثمانين ؟

ـ أي حوار ، سيدي الجنرال ؟

ـ قال بسمارك : « بعد هذه الأحداث ، هل ما يحدي بعد للحياة ؟ » ، فأجاب مولتكه : « نعم ، أيها القائد : أن ترى شجرة تنمو وتكبر » .

وسكت الجنرال برهة تفكير ، ثم عاد ليقول :

ـ رجال التاريخ ، لاعبون مهره .

حين يتكلم بلهجة حميمة ، تتثنى عينه ، وتبدو اللهجة الحميمة على بعض سخرية . وأكمل :

ـ لم يكن القديس برنار متأكداً من أنه سحق ابيلار . ونابوليون لم يكن متأكداً من الانتصار صباح أوسترليتز . في بورودينو ، ظن أنه منتصر ، اذ غادر الروس الساحة . سأل : « كم الأسرى » ، فأجيب : « لا أحد تقريباً ، أيها القائد » . ففهم أنه دخل في معركة خاطئة ، وخرج من انتصار خاطىء .

ـ الاسكندر الكبير تساءل ، قبل لقائه بوروس ، كيف يمكن أن يقوم بالحملة على الهند ؟

التأرجح في السياسة الكبرى ، لا يختلف كثيراً عن التردد في الشؤ ون العسكرية . نأخذ عاملاً مغيراً في التاريخ : لحظة يمرّ التيار . معنا أو ضدنا : ويرماخت العام . ١٩٤٠ وتلك التي عام ١٩٤٤ ، التحرير وأيار ٦٨ . أحياناً ينقضي بأسرع مما به جاء . وأقصد هنا ذاك الذي يعطي الشعب روحاً ، كما الجيش .

فكرت في الجزائر ، وخاصة في فيتنام . كم سمعت بالأمس عبارة : « لا يمكن قيام جيش من الأنـاميين » . وأجبت :

ـ في الفن أيضاً ثمة طابع سحري للتيار : حين بودلير يصير بودلير . . . وكذلك « السيد » . . .

وسيرانو . . . الذي يستعاد أبداً .

ـ أما زلت تحب إدمون روستان ؟

ـ أحب شبابه . . . التيار الذي يمر قد يكون ما كانت روما تسميه الثروة . . . المهم . . . أيام قليلة ، بعد ، تفصلنا عن ١٩٧٠ . . بعد اليوم ، جيل واحد يفصلنا عن الدخول الى العالم الثالث . . . وهو دخل الى الولايات المتحدة .

ـ إنها نهاية زمن الأمبراطوريات . . .

ـ لا نهاية الامبراطوريات فقط . . غاندي ، وتشرشل ، وستالين فهرو وحتى كينيدي ، هم أصحاب جنازات كبرى . . .

ورفع يديه في الحركة التي نعرفها عنه ، والتي لم نرها مرة إلا أمام جمهور . . .

فكرت بالمحرقة التي راحت تجعل الرصاصات المتأججة تتساقط من جثمان غاندي ، وبصفارات القطارات الروسية راحت تعلن موت ستالين في مجاهل سيبيريا ، وبحرس تشرشل وكينيدي ، وبِفيَلَة نهرو . كل هذا في حياة واحدة . وقلت :

ـ لا يزال ماو وعبد الناصر في مكانهما . . .

ـ ماو ، نعم . الإسلام ، ربمـا . أما افريقيا ، فمن يدري ؟

فكرت بطانرتي عام ١٩٥٩ ، عند الفجر ، فوق رهبة مستنقعات التشاد ، وبالجندي الزنجي المغمى عليه تحت شمس الكونكورد ، يوم ١٤ تموز خلال توزيع أعلام الوحدة . وفكرت بالرئيس سنغور ، والزنوجية الكان بها يطالب ، فيما الأميرة الميروفنجية في كازامانسا يتبعها قطها الكبير تجر وراءها أتباعها تحت رذاذ الثلج ، نحو الأشجار المقدسة . سنغور أيضاً كان يبشر بدخول العالم الثلث . الغطسة الأخيرة في آسيا . آلاف الأزهار منحنية بحركة واحدة ، ماو ، المدينة المحرقة ، شمس الصين الساطعة عبر ستائر الحرير الأبيض . . . عام ٢٠٠٠ ، هل يقوم العالم الثالث في وجه المدينة التي تغزو القمر وتتجاهل الشباب ، وفيه طلاب يحرقون أنفسهم كالرهبان البوذيين ؟

راح الجنرال ، دون انتباه ، يبعثر أمامه ورق اللعب على الطاولة الخضراء ، وينظر في الخارج الى الثلج المتساقط :

ـ سيقام صليب اللورين على أعلى تلة مشرفة . واذ لا أحد في المنطقة كلها ، لن يراه أحد .

تطلعت صوب القمة ، فلم أر إلا تماوج الغابة السحيقة . قال :

ـ ستالين معه حق : في النهاية ، المنتصر الوحيد هو الموت .

ـ ربما الأهم في أنه لا يربح فوراً . كانت مصر تعتقد أن المومياءات والتماثيل والأهرام ، لا تعود تحمي الفراعنة بعد مرور آلاف السنين . ومع هذا ، بقيت مصر تبني الأهرام .

ـ كان يجب . . .

له اليوم ثمانية وسبعون أو تسعة وسبعون عاماً . . . وكان مرة

قال : « لا أدّعي أن السن لم تلعب دوراً في قراري » . وها هو يبدو اليوم أكبر مني كثيراً . ذلك أن الشيخوخة لا تبدو لنا بل على سوانا . لكنها سطوته بقيت أخّاذة ، وهو لا يجاور الشيخوخة ، بل يجاور لا مبالاة رواقية تخص التاريخ الذي هو بناه . وهو عام ١٩٤٠ ، كان قال في خطاب له : « سألت مرة رجل السهل لماذا يرتقي الجبل ؟ فأجابني : لأرى السهل أفضل » . وحين كنت بالامس ألمح الى الشعور الديني ، كان يجيبني بالحركة التي ألفتها فيه ، وهي كمن يطرد الذباب . قال :

ـ ثمة تعساء ، لم يجعلوا شيئاً في حياتهم ، كانوا يأخذون عليّ تغيراتي . ولكن ألم يكن العالم الذي أعمل فيه ، متغيراً هو الآخر ؟ إن السياسة المستمرة ليست دائماً متشابهة . انهم يعتقدون أن الحياة في تقليد الطفولة ، وفي أكل الحلوى .

ـ لا أظن أن جيلاً واحداً ، شهد تغيير العالم بهذه السرعة ، حتى عند سقوط روما .

ـ إن روح السياسة في أوروبا ، هي الأمة . فهل بعد القنبلة ، ستبقى الأمة على ما كانته قبلاً ؟ لن يكون التكرار دائماً : القنبلة الذرية ليست سوى قنبلة أقوى من غيرها جاء اختصاصيون يقولون لي : لا تحمل إلينا الاختراعات سوى مضاعفة وسائلنا الخاصة . . . بلى . . . الميكروسكوب الالكتروني ليس سوى نظارات أكبر : يجعلنا نكتشف ما لسنا نبحث عنه . يحل بعض مشاكلنا ، ويحمل مشاكله . لم ننته بعد من مشاكل القنبلة الذرية . السلاح الأقوى ، بدأ بإحلال السلام . وهو سلام عجيب . . . انما فلننتظر بعد . . . مع نمو القطاع المسمى قطاعاً ثالثاً ، ما مصير صراع الطبقات القديم ؟ في

أيار ، قلت عبارة أقرّها : مأساة الطلاب ليست جامعية ، بل هي أزمة حضارة . شهر أيار خلق الكثير من الخيال ـ وليس فيه سوى قتيل واحد ، وعرضاً لا عمداً ـ ولكن الى أي حد لامس الشبيبة الفرنسية ؟

هنا تدخلت السيدة ديغول :

ـ أحد مربي النحل ، اكد أن النحل أيضاً ، في فرنسا ، كان مهتاجاً في أيار .

تذكرت فندق لابيروز لدى عودته ، إذ قال : « لو كنت قبل موتي ، يمكنني أرى شبيبة فرنسية » . وتذكرت عبارة ماكس توريس في أيار ، عندي في مكتبي (بور رويال) . وأجبت :

ـ تبدو لي مأساة الشبيبة ، نتيجة ما أسمي سقوط الروح . ربما حدث شيء مماثل قبيل انهيار الامبراطورية الرومانية . فلا حضارة يمكنها أن تقوم دون قيمة عليا ، ولا ربما دون تفوق .

ـ هل يمكنك الكلام على قيمة عليا دون أن تكون هذه قيمة دينية ؟

ـ كان روبسبيار يؤمن بالمنطق والأمة . وبما يجب عمله لتأمين نجاحهما . وهو ما فعله حتى المقصلة . وسان جوست لم يكن أمام الستراسبوريين ، ولا سان برنار أمام الطلاب . الجامعة لا تعرف ما تريد ، وكذلك الدولة الغربية ، وكذلك الكنيسة . وكذلك الطلاب هل تظن أن حضارة واحدة ، قبل حضارتنا ، عرفت سوء الضمير ؟ لم تمتلك حضارة واحدة هذه القوة ، ولا واحدة كانت الى هذا الحد غريبة عن قيمها فلماذا غزو القمر ، اذا كانت الغاية الانتحار فيه ؟

هربت القطة غريغري ، كما خوفاً ، وتذكرت هرة السيدة خضري باشا ، وهي لم تكن تحب سماع الحديث عن الموت .

تغيرت الاضاءة في الصالة : عاد الثلج الى السقوط . وراح الضوء الجديد يلتمع أمامي على اللعبة وأسلاكها ، فيما قلت :

- غريب ان نحيا ، واعين ، نهاية حضارة . الثورة الفرنسية والثورة الأميركية عقبتا نهايتا مجتمع . الفلاسفة الرومانيون كانوا ينتظرون الرواقية ، لكن هذه لم تكن ميزان ثقل في وجه المسيحية .

- لأنها كانت يائسة ، بينما القيامة تدعو الى الرجاء لا الى اليأس . الأمل دائمًا أقوى من القلق .

- الشاذون ، من زمان ، سبقوا الهيبين والمعارضين . لكن أساتذة ذاك العهد لم يكونوا شاذين . كان فاليري يقول لي عن جيد : لا يمكنني أن آخذ بجدّ ، رجلاً همّه حكم الشباب عليه . وكنت أجيبه أن ثمة فرق بين الشبيبة والشباب .

- طبعاً كالفرق بين فرنسا والفرنسيين . ولكن أية حضارة قبل حضارتنا ، عرفت كباراً أعداء شبيبتهم ؟ قلت إن أساتذة القرون الوسطى لم يصيروا شاذين . ثمة ظاهرة لا تدوم : عدم مسؤولية الذكاء . إمّا يسقط هو ، أو تسقط الحضارة . الذكاء يهتم بالروح ، كما اهتمت قبلًا بالكون ، بالحياة ، وبنفسها . كما هو في روسيا ، وفي الصين . ولكان مونتسكيو قال لي أشياء مهمة . وحين سألت مثقفينا ، قالوا لي أشياء غير مهمة ، أحياناً بلا اندفاع ، وأحياناً بلا جدية ، انما غير مهمة . السخانة تحكي ، لكي لا تقول شيئاً . الذكاء ، على العكس . وسترى . يجب الرجوع دوماً الى ما به نفكّر . يمكن ان نتخاصم على أهواء مبهمة ، انما لن نتخاصم على هذر . ويمكن الانتهاء الى بيع جرائد اليسار على الارصفة ، لا عن جبن ، بل لأن هذه شجاعة لا تجد أمامها خصمًا . لو

اني قلت لستالين إن أخصام الدولة والحكومة عندنا لن يسلموا أنفسهم قريباً ، لكان اتهمني بالجنون . . .

ـ كيف بدأت مع ستالين ؟

ـ بقينا نحو دقيقة دون كلام . . . وكان ذلك طويلاً . . . ثم . . .

هزّ كتفيه وأكمل :

ـ ثم ظننت انه سيحدثني عن أوروبا ، أو عن جماعة لوبلين ، وكان متمسكاً . بهم . لكنه قال لي : « إذن ، جئت تطلب مني توريز ؟ لو كنت مكانك لما أعدمته . انه فرنسي جيد » . فأجبته : « الدولة الفرنسية تعامل الفرنسيين بما تنتظره منهم . وانتم ؟ » .

من عادة الجنرال ألّا يروي قط . . . « دجاج ستالين ، يستطيبه تشرشل » . لكن غيره يحل مكانه . تذكرت مأدبة الكرملين ، وذاك الوزير الأهوج الذي حمل الخبز الى ستالين ، وهذا غير مسموح . فحمل ستالين كأسه الفودكا ، وكان فيه ماء ، اذ لا يشرب الخمر إلا في شقته الخاصة ، وقال : « الرفيق فلان وزير النقل والمواصلات ، . . . فإذا لم تسر المواصلات كما يجب (وسحق ستالين كأسه بين أصابعه) سيشنق » . وأظن الجنرال فكر بهذا المشهد اذ قال لي : « كان طاغية آسيوياً ، ويريد نفسه هكذا » .

ثم دار الحديث على حكومة لوبلين الكان الجنرال يرفض القبول بها . انتهى وقت المأدبة ، ودخل الجنرال ينام . وفي الثالثة صباحاً ، اذ لم يجد مولوتوف وزير خارجيتنا بيدو ، جاء الى غاستون باليفسكي يقول له : « هلاّ قلت للجنرال ديغول إن المارشال سيعرض فيلمًا من

أجله » ؟ ونزل الجنرال الى غرفة الكرملين الصغيرة . كان الفيلم وطنياً ، وفيه الجنود الألمان ، بالصورة المكبرة ، يتساقطون الواحد تلو الآخر . ولدى كل قتيل ، تنكمش يد ستالين على رجلِ الجنرال . وهنا قال الجنرال : « وعندما أحسست أنه أوجعني كثيراً ، سحبت رجلي » .

وقتئذٍ ، كان هتلر لا يزال حياً . .

وفي الصباح ، تم توقيع المعاهدة الفرنسية السوفياتية . كان الثلج ، كما هذا الذي يحيط بنا اليوم ، انما اكثر كثافة .

ذات يوم ، وكان المخرج الكبير سيرج آيزنشتاين تلقي أمراً بتوفيق العمل في إخراج « الوضع البشري » ، همس لي : « حين اخرجت « بوتمكين » ، لم يتدخلوا ، إذ كنت بعد مجهولاً ، وكانوا يعطونني ستة أسابيع لانهي الفيلم ، مهما كانت العقبات . كنت في السابعة والعشرين . ولكن اليوم ، لن أطلب مقابلة ستالين ، لأنه إن لم يفهم ، لن يبقى له الا الأمر بقتلي » .

وفي الواقع . . . كيف مات ايزنشتاين ؟

قال الجنرال :

ـ لا يفيد السيكولوجيا كثيراً . سلفاً نعرف أن روزفلت ليس تشرشل ، وأن خروتشيف ليس ستالين . لا جديد من كلام الفرد الى القائد . ليس من السحر اكتشاف أن المرض يزهق .أما شعوبنا ، فعصرنا يضعها إزاء مواقف مفاجئة تحدث في الناس عن روسيا الخالدة حين قرأوا كوستين . لكن وجود كوستين كان قبل وجود الحزب الشيوعي . وهذا مهم .

إنه يتخذ معرفة الناس على أنها خصيصة مهمة لدى القائد . ولا يستعمل كلمة سيكولوجيا طوعاً . كان يهمه ألا يقع سخرية الناس ، وأن يفهم متى يقعون في سخرية أنفسهم ، والى أي مدى تبلغ الثقة ؟ وإلى أي حد يمكنهم التوغل في عمق الأشياء . وكل ما عدا ذلك ، لم يكن يهمه . . .

هذه المعرفة ، تتجه من أعلى الى أسفل . ولا تنطبق ، جزئياً ، إلا على محدّثيه التاريخيين . من هنا ، أنه يحيط بجغرافية الخصم . وهو حريص على تحديد موقعه ، كما رئيس ديني على تحديد إيمانه . وأياً يرفض هذا الموقع ، يرفضه الجنرال . لذلك تباحث مع روزفلت بأسوأ مما مع ستالين . فروزفلت كان يعتبر أن فرنسا لم تعد تهم ، وستالين أن فرنسا لم تعد تهم عسكرياً ، لكنه كان يعرف أن الاتحاد السوفياتي أيام برست ليتوفسك لم تعد تهم مطلقاً . وكان ستالين يجد في الجنرال ديغول زميلاً في « مواجهة كل شيء ، لا عبقرياً عادياً » . والجنرال الكان يحدد روزفلت انه « ديمقراطي منفّذ » ، لم يحدد الجورجي قط . قال :

ـ هوذا الملمح الأبرز الذي صوّر لي عن ستالين : يظن نفسه وحيداً ، فيما مولوتوف وراءه . يغمر بيديه أقساماً كبيرة من الكرة الارضية التي في مكتبه ، وبيد واحدة أوروبا ، ويتمتم : « كم صغيرة ، أوروبا » . لذلك حين التقيت ستالين ، لم ألتق روسيا بولونياي ، كانت العكس . وأقولها في إقرار : روسيا تهم كثيراً .

ـ ما قد تحمله اليك الحياة في الاتحاد السوفياتي : تلك الغرابة اللامحدودة التي تكلم عليها كبار الأدباء الروس ، والتي ما تزال موجودة حتى اليوم . كان ستالين يردد : « عندنا سبارطة وبيزنطية .

وأنا أميل الى الأولى » . . . ذلك أن ليس سوى بيزنطية تقف في وجه سبارطة . ذلك ان السكارى الملهمين ، هم الكوميك السوفياتي ، الذي ليس اكثر زهواً من الكوميك الروسي . وأنا عام ١٩٣٤ ، عرفت قائد الشرطة في الشمل الكبير . كان الناس هناك يدمنون على الكحول فتقضي عليهم . وكان يلزمهم تنظيم . وبعد مسافة أسابيع من الزحافات التي يجرها كلاب ، وصل القائد في إسبة (منزل خشبي يسكنه فلاحو روسيا الشمالية) فوق الأوقيانوس الجليدي . وكان معه عدد كبير من زجاجات الفودكا ، وروسي توفي انما لا زال محفوظ الجثة في الجليد ، وبعض الحيوانات اخصها طيور البطريق ، ومُدّت على الطاولة قصاصة جريدة من سان فرنسيسكو ، عليها إعلان زواج : « فتاة جيّدة الظروف ، ترغب في الزواج من روسي ، سيبيري على الافضل . مطابق لشروطها » . ويعود تاريخ الجريدة الى عام ١٨٨٣ . وحّدها كدسات من الروبل ، عليها حجر . . . وكان نادي روستوف مكوناً تقريباً في اكثره من المبتورين ، لأن كل مهماته كانت محصورة في الصاق ملصقات على جدران الكاتدرائيات ، مكتوب عليها : « الله خائن » . وتساءلت كيف لم ينتهوا جميعهم الى سجن الاشغال الشاقة (واظنهم انتهوا اليه في ما بعد ، لأنني كنت في روستوف قبل حملة التطهير) طالما الله خان بتسليم روسيا الى البولشيفيين ؟ إنه سرّ . لكن اوره كان يسوّي الأمر ، إذ كل عام كان يسقط بعض الملصقين فينكسرون يدهم الباقية او رجلهم . وحدّي ، كان عُرج يترعون الفودكا مع أصدقائهم الذين ستنكسر ارجلهم في العام اللاحق . . . كان اهرمبور يقول إن روسيا ممتلئة بنماذج الاخوة كارامازوف » . ومعه عرفت اجمل مشهد روسي . ففي

احدى مدن سيبيريا ، كانت المخازن تعلق ملصقات من إمضاء ستالين ، تعلن أن العلاقات الجنسية باتت ممنوعة . وانتشرت الخُطب : ايها الرفاق ، كل هذا الوقت المهدور على إشباع الرغبات الفردية ، يضيع من طريق الانتاج . ان الجنس اخطر من الفودكا . يكمل في اهرنبور : « عندها ، ذهبت الى مركز البريد ، وطلبت ارسل برقية . فأجابتني الموظفة الشقراء ذات الجدولتين : ايها الرفيق اهرنبور ، إنني مزّقت كل شيء . هو قال : العلاقات الجنسية بين الرجال ممنوعة . ما اغباهم في موسكو . كما لو كان يمكن ان تقوم علاقات جنسية بين الرجال . فامتعضت وقلت لها : ايتها الرفيقة الموظفة ، ما اغباك انت . . . » واعرف العديد من هذه النوادر ، التي لا اظن انها لا تعني شيئاً .

ـ صحيح . . .

ـ وهي تمتزج ، كما في الروايات الروسية ، بالمياه العميقة ، العام الماضي رأيت أحدهم ، في مدينة كومسومول ، مضطرباً لأنه قرأ دفتراً فيه الانجيل بحسب ماريوحنا ، وهو دفتر كان يباع بأغلى من مؤلفات تولستوي الكاملة . وانني استمعت الى عالم نفساني (اليوم بات الكلام في موسكو أسهل ، اذ قبضة البوليس باتت فوق الرؤوس ولم تعد على الحنجرة) قال لي : عالجتُ مؤخراً ابن أحد المندوبين من البروليتاريا . فسألته السؤال التقليدي : « بم تحلم غالباً » ؟ ليجيبني : « بأنني ، أخيراً ، صرت وحدي . وحدي ضد كل الآخرين وحدي ضد كل الناس » . ومؤخراً اذ كان بوخارين يذرع معي ساحة الأوديون ، قال لي : « أوشك الآن ان يقتلني » . وهذا ما

حصل فعلاً . . . ولدى دخول الاتحاد السوفياتي الحرب ، اصطف الاسرى البولونيون عسكرياً ، ليستمعوا الى الضابط البولوني يقول لهم ان عليهم الانخراط في صفوف جيش التحرير البولوني ، الى جانب الجيش الأحمر . وتقدم الضابط بعدها ببطء ، متعكزاً على عكازتين ، لأن الروس ، الشهر السابق ، كانوا بتروا رجليه . . . هل تذكر ، سيدي الجنرال ، منظر ستالين المضحك ، أمام عدسات المصورين ، عقب توقيع المعاهدة الالمانية السوفياتية ؟ يقول دجيلاس ، وهو قابله قُبيلك او بُعَيدك ، انه كان أصلع . وأنا حين عرفته ، كان ضابطاً قوياً في الشرطة ، ذا سطوة وغليون وشاربين . .

ـ لكنه عام ١٩٤٤ ، كان استحال هراً عتيقاً . أصلع ؟ ولكن الهر أصحر . لم يكن ينظر إلا الى المستقبل ، لكنه لفتني بتعلقه في الماضي .

ـ الماضي ماثل بوضوح في روسيا . في مكتب لينين ، قرب خارطة جبهات الحرب الأهلية ، وعلى كدسة مؤلفات ماركس ، تمثال انسان منقرض ، من البرونز ، تقدمت صناعي أميركي كان يريد تأسيس مصانع أقلام ، بعدما قررت الحكومة تعليم الأطفال الكتابة . . . وشاهدت المسرحية المقتبسة عن رواية : « عشرة أيام هزت العالم » ، فكانت أخاذة اسطورية بحتة ، اكثر من « اوكتوبر ايزنشتاين . وفي اليوم التالي زرت متحف ماركس وانغلز وهو كثير الفراغات حتى كان مكان متسع ، في الغرفة الأخيرة ، لبعض العشاق يتبادلون القبل الحارة التي لا تتيحها لهم مقاعد الشارع . والى ذلك ، قيامة لينفرد النصبية ، ومقبرة الخمسة آلاف ضحية ، وتمثال ستالينغراد الضخم الذي هو فعلاً في ضخامة سبارطة . .

ـ وعـدا الباهر ؟

ـ لدى غوركي ، كان ستالين خداعاً شاذاً . كـان الجذل الصامت . وكان أظن ،تحت سيطرة الهلوسـة الاحصائية (كما انت ، سيدي الجنرال ، تحت ارادة الجمع) : لو قتلنا جميع الذين عرفوا من عرفوا . . . نصل الى المذنبين الحقيقيين ، أو نشلّهم . وكان يقول : « معي ، لن يتكرر فرنكو » . ومع هذا ، لم تكن تهمه براءة الكان يقتلهم أو يرسلهم الى الأشغال الشاقة . تَذَكّـر جوابه الى دجيلاس الكان يتشكى من اغتصابات الجيش الأحمر في يوغوسلافيا ، اذ قال : « عانى هذا الجيش كثيراً حتى بات لا تصح محاسبته على أي شيء » . وخاصة اسرى الحرب الروس المرسلون الى الاشغال الشاقة ، والذين منهم تمكنوا من الهرب .

ـ هل الهاجس الإحصائي يفسر تصرف الطاغية ؟

ـ لا تزال تذكر حواري مع بوخارين ، وكان بعد في الحكم : « لحل مسألة الغولاك (المزارعين الأثرياء) وفق نظريتك ، يجب قتل ثمانية ملايين منهم » ، وعندما سألته : « وبعد ؟ » ، سكت فبدا أفعواناً رهيباً ذا شاربين . . . ثم كان حواري مع كوسيغين عام ١٩٦٦ . صُوّر لي سياسياً محنكاً ، لكنني رأيته الثالث الباقي من

لثالوث الحاكم ـ والباقيان كان قتلهما ستالين ـ ، وهو كان عمده ينغـراد عند المعركة . وتذكرت أكبر مقبرة مدنية في العالم . ولكن حوار ذاك ، كان هو نفسه مع شو إن لاي ، مزج أخذ المواقف التاريخية الصلبة مع التأكيدات . . . وهو حدثني عن الحكم الفردي المتهم عند ماو ، عن تطور الإنسانية : « لا يمكن أن نخيط الناس في

سروال واحد ، فلا يعودون سوى جنود . إن زمان المتعصبين عَبَـر » .
بعدها ، ختم بتأكيد جازم : « ثمة فرق بين الحزب الذي عرفته ، وما هو عليه اليوم ، كالفرق بين موسكو التي عرفتها ، وما هي عليه اليوم » . وأظنه على حق ، إلاّ في كون الحزب لم يعد هو الحزب .
وهو ، على أي حال ، واقع تحت سيطرة شخصية ماو ، وطموحه في غزو آسيا . قال لي « على ماذا يتكل ماو في ذلك ؟ الإنتليجنسيا ضده . انه الديكتاتورية عينها ، وسيؤدي به الأمر الى الرأسمالية عند وفاته ، سيكون فراغ كبير . كل ما فعله ، مستند على الخوف » .
قلت له : « لكن الخوف دافع كبير ، سيدي الرئيس » . فأجاب : « قد ينتهي الصينيون الى التدخل في فيتنام» (حيث لا يمكن الاتحاد السوفياتي أن يدخل) هم يختارون الحرب ونحن نختار السلام » .
قلت « هـل تعتقد ، سيدي الرئيس ، أن الولايات المتحدة ستستعمل القنبلة الذرية ؟ » قال : « لا الصينيون يتكلمون كثيراً على الحرب ، لكنهم لن يخوضوها . حتى في فيتنام . لست متأكداً من أن قوى السلام يمكنها أن تصنع السلام ، لكنني متأكد من أن قوى الحرب ، صورياً ، لا تستطيع ان تصنع الحرب » . . . يومها ، سيدي الجنرال ، كان الثلج يتساقط ، كما هنا ، انما أغزر . وأمام النافذة نفسها الكان يقف عليها ستالين، وجدت خطاباً قديماً :«كان ستالين يقف أمام نافذته،من الكرملين ، ينظر الى الثلج المنهمر يغمر الفرسان التوتونيين والجيش الكبير» . . . وعام ١٩٣٤ ، رحت في ذاك الشارع الصغير عند أسفل الكرملين ـ افكر بهذا البلد الوسيع التاعس ، يهدده هتلر من جهة ، وهو من جهة أخرى يحلم بمنافسة أميركا الهائلة . ورحت انظر حولي ، الأبراج العائدة الى القرون الوسطى ، وأتذكر الحرس الامبراطوري لناطحات السحاب في مانهاتان . . . وكنت رأيت سهوب سيبيريا تشتعل فيها أنوار المصانع

كما في بدايات حريق . . . على أن آخر ذكرياتي في روسيا ، لا يخص ستالين ولا أتباعه . فأحد أصدقائي طلب مني ـ وكان هاجر منذ ١٩١٨ ـ أن أذهب وأرى أمه في موسكو ، أسألها ما تحتاجه من مساعدة ، فزرتها . وبعد أشهر من عودتي ، وكنا معاً في صالة السينما ، قال لي فجأة : « ألا تشبه أمي اليوم هذه السيدة العجوز على الشاشة ؟ » .

في هذه اللحظات ، دخلت الى الساحة ، السيارة ذات الاطارات المسمرة ، للثلج ، والتي ستقلنا الى بار : نهض الجنرال ليرافقنا ، مضيفاً كما كي لا ينهي ضيافته المتواضعة والخالدة ، دون أن يبلغ جوهر الموضوع . قال :

ـ تذكروا ما كنت قلته لكم : أجد أن لا شيء مشتركاً بيني وبين ما يجري .

ـ لكن الشخص التاريخي يبعد الابهامات . . .

على أن رجال التاريخ لا يشبهون قط ما يتمناه لهم خصومهم . وقد لا يشبهون نفسهم كذلك . . . أكمَل قائلاً :

في السياسة ، ثمة خطة اسمها التاريخ . والكلام عليها كالكلام على المبارزة . تعرفون عبارة نابوليون : « الحرب فن سهل ، يلزمه تنفيذ » . فلنفكر قبل أن نتصرف ، لكن التصرف لا يولد من ناحية التفكير انه شيء آخر . قلت لكم سابقاً : القدر التاريخي لا ينفصل عن أخطاء كثيرة . لم أخطىء كثيراً في تقديراتي عن فرنسا ولا في ما كان علي فعله تجاهها . ومع هذا ، قدّرت أن روسيا ستكون عاجزة عن صنع القنبلة الذرية ، وأن الحرب عام ١٩٤٦ تقترب لا محالة ، وأن فرنسا عام ١٩٤٧ ستعلن عجزها عن الاحتمال . . . عام

١٩٦٠ . قال لي أديناور ان الاشتراكيين اذا استولوا على الحكم في بون ، سيتعاملون مع موسكو . وكان كلانا مخطئاً في تقديره الا على مصير فرنسا ، لم اكن أخطىء فلم أخطىء في تأكيدي إن بيتان لن يذهب الى الجزائر . كنت على حق في قولك إن المرور في مونتوار يؤدي الى سيغمارنجن . فلم يكن يجب المرور في مونتوار . من هنا ان فرنسا ، عليها ، حتماً ، التصدي لاعادة تنصيب رايخ جديد ، ووضع اكليل على الجندي الالماني المجهول . . . الزمن وحده يصنع التاريخ . واذا تاريخ فرنسا يمر في استقلال الجزائر ، فليمر ! في اتحادنا مع المانيا ، فليمر ! لم يكن مفرحاً ، الندم على استقلال الجزائر . كان يجب ، على أي حال ، التفكير بأننا مسؤولون عن فرنسا . وعلى عكس ما يعتقده السياسيون ، لا يقومون هن بأي شيء يجمعون مساحات ، بانتظار خسارتها . يدافعون عن مصالح بانتظار الانقلاب عليها . ان التاريخ ، طريقة من دروب اخرى . هؤلاء المساكين يظنون أنني تصديت لميتران أو لبوهير . . . لكنني وجدتني متصدياً لما جئت الآن تتكلم عليه . فرنسا كانت روح المسيحية ، واليوم روح الحضارة الاوروبية . فعلت كل ما بوسعي للحفاظ عليها هكذا . . . فما اهمية أيار وأخبار السياسيين ؟ أنا حاولت اقامة فرنسا مقابل نهاية عالم . . .

صحيح . . . وهو كان كتب : طويت صفحة الانظمة الاستعمارية . وطوّر الفكرة ، اننا نعيش نهاية المغامرة الكوكبية الأولى ، التي بدأت مع الاكتشافات الأولى . فاكتشفنا العالم كله ولم يكتشفنا أحد . ثم كانت المستعمرات ، ثم الانظمة الاستعمارية ، وأخيراً إزالة الاستعمار . تبدأ الأمور غامضة ، ثم تنتهي في وضوح :

نهرو في دلهي عام ١٩٤٧ ، ماو في بكيز عام ١٩٤٨ . والقوى الثلاث أو القوتان والنصف : أميركا وروسيا واليابان ـ وهي ركائز المحيط الباسيفيكي ، وبينها الهند لا مع أوروبا . وبعد المقولة : في القرن الثامن عشر ، دخلت اميركا وروسيا معاً في التاريخ » ، ستقوم المقولة : « في النصف الثاني من القرن العشرين ، حين انهارت الهيمنة الاوروبية . . » وعاد الجنرال الى الكلام :

ـ تراني فشلت ؟ لسوف يحكم الآخرون . لا شك اننا نشهد نهاية أوروبا . فلماذا على الديمقراطية البرلمانية ، وتوزيع مكاتب التبغ ، أن ينهضا بأوروبا ؟ ولماذا على فرنسا ان تتحمل وزر جيرانها ؟ ولماذا نموذج من الديمقراطية كدنا نقضي عليه ، يكون مقدّساً ، حين المطلوب تجاوز العقبات الكبرى التي يتطلبها خلق أوروبا ؟

لم يكن متأكداً من امكان نمو بلجيكا . ومعه ، بت لا أؤمن بتسليم قدر وطن الى ما نريد التغيير فيه ، حين يكون هذا البلد مهدداً . لكنني كنت أؤمن بتسليمه قدر أوروبا . وراح يكمل :

ـ يقدرون الديمقراطية بعد فقدانهم إياها . وأية ديمقراطية ؟ لدى ستالين أم لدى غومولكا أم تيتو أم بيرون ؟ أم ماو ؟ الولايات المتحدة عرفت سلطانها : روزفلت ، وهي اليوم نادمة عليه . من هنا سقوط أوهام كيندي . انتخابه كان على الشفير ، وهذه ظاهرة ستتكرر : في بريطانيا وعندنا . في الانتخابات الأخيرة ، لم أحصل على هذه

الاكثرية الا بالخوف ، وراحت الاكثرية مع الخوف . يوم ولدت الديمقراطية ، ولد العالم على البعد الثالث . ولماذا لا يمكن الحكم بنسبة ١ ٪ من الأكثرية ، لماذا ؟ أما أوروبا ، فتعرفون مثلي ، فاما أن

تتحالف مع الولايات المتحدة ، أو أن تنهار . نحن آخر الأوروبيين في أوروبا ، بعد المسيحية ، أوروبا الممزقة والموجودة رغم تمزقها ، أوروبا التي تتكاره فيها الامم . . . بلى ، فرنسا لن تستعيد اوروبا ، وموت اوروبا يهدد فرنسا بالموت .

أظنه يتكلم على أوروبا ايام الاسكندر . . التفت وراءه ، فوجدت الغابة تمتد خلفه مديدة . سلت برهة وأردف :

ـ الطلاب المهتاجون ، عملية تفصيلية . خُلِقَ الطائفيون لطرد الشيطان ، ثم أُدخل الشيطان بين الطائفيين . الديمقراطية الحقيقية أمامنا لا وراءنا ، وعلينا خلقها . يمكن الأمة أن تكسب الوقت ، ويمكن الشيوعية أن تظن الشيء نفسه . يجوز ان تكون الحضارة بلا أي ايمان معينٍ ، ولكن ما تضع مكان هذا الايمان ، وعيّاً أم لا وعيّاً ؟ لا شيء نهائياً في هذا الموضوع . لو كانت فرنسا تعود فرنسا . . على كل ، حاولت ما في وسعي . . . إن كان مكتوباً علينا أن نشهد موت أوروبا ، فلنشهد : هذا مشهد لا يحدث كل صباح . . . فرنسا شهدت حكم الكثيرين . . . قلت لكم مرة إن الأمر لم يكن يسير كما يجب ، يوم معاهدة بريتيني ، ولا يوم ١٨ حزيران . . ولكن اكرر : إنطلاقاً مما قمت به ، لا مما يقام اليوم . كل ما يجري ليس يعنيني في شيء .

وهل من يشك في ذلك ؟ جميع المسؤولين اليوم يعرفون انهم لن يجروا بعد الى هذا الرهان الخطر . وغير المنظور ، بعد اليوم ، لم يعد فرنسا ، بل لدى الآخرين . . .

الى هنا ، كنا وصلنا الى الباب . مدّ لنا الجنرال يده ، وتأمل في الفلك النجوم الأولى ، بين غيمتين هاربتين ، وقال في سخرية :

- انها تؤكد لي فراغ الأشياء من المعنى . . .

واقلعت بنا السيارة . وبقي الثلج الابيض ينهال على الأشجار السوداء . هل ، حقاً تكون دون معنى : المحافظة على فرنسا ضد كل شيء ، والمقاومة البائسة وكل هذه المغامرة اليائسة ؟ وهل من الوهم : ازالة الاستعمار ، ونهاية المأساة الجزائرية ، والرجل الذي كان يعني فرنسا كلها متكلمًا ، الند للند ، مع رئيس الولايات المتحدة ؟ تذكرت احد نقابيي عام ١٩٣٤ ، اذ كان في تلك الاضطرابات عامئذ حاملاً علمًا أحمر وأسود ، فيما المسؤولون السياسيون يصرخون أمام الشرطة الحارسة : « أنزلوا هذا العلم . . . أسقطوه . . . أسقطوه . . . » . .

الثلج ما زال يتساقط . . . عدت الى عصور من الظلمة انتصبت فيها الأجراس الأولى . . . الى عصور كانت فيها الساعات تسهر على المسيحية برقاصها الوحيد . . . ساعة سنغور دقت ضربة واحدة في مكتب داكار المكيف الهواء ، فارتجف الهواء الساخن خلف الشبابيك . هل الطقس جيد في داكار اليوم ؟ وهل رؤساء البلدان الإفريقية الجديدة - وهم لا يفكرون بأوروبا الا لمساعداتها - يحلمون بالوحدة الافريقية ؟ تذكرت ذاك الزنجي الختيار يمشي وراء حماره في ذاك الزقاق . وفكرت : ما أهمية افريقيا وماو (اذ عاد يختل الصين) والاهواء التي انهالت على الشعوب ، وما اهمية حتى الشعوب ؟ وما يمكن ان تحمل لماو وللملكة كازامانسا ، دوائر هذا الثلج العتيق ، ورفيقاته الخالدات هذه الغيمات العابرة فوق الاجراس الحية والمقابر الزائلة ؟ فكرت بمتوحشي بورنيو ، وجميعهم حالون . . . وفكرت كذلك - ربما عن خشيتي ان تكون هذه

آخر مرة أرى فيها الجنرال ـ بمنزل نهرو ، وبيانـاريس : « أنا موت كل شيء وولادة كل شيء . . أنا الكلمة والذاكرة ، المثابرة والشفقة . . . أنا صمت الاشياء السرية . . . » وراح الغانج يحمل في انسيابه انعكاسات زرقاء وحمراء في الليل . . . « الآن ، فالفظ عبارات الحكمة غير المجدية » . وتعود لي انوار المصابيح الشحيحة في دروب بيناريس المسدودة ، وبالامس في شوارع اور وبابل ، يرافقها نباح كلاب من بعيد .

في برونين ، عام ١٩٤٠ ، كان ضابطنا ينتظر الاوامر . واذ لم يكن لائقاً ترك الجنود بلا عمل ، كانت مهمتهم ان يبحثوا عن انفال من اربع وريقات (لا ثلاث) . . . اتذكر انعكاس القمر على مصفحتنـا ، فيما نحن متجهـون صوب الخـطوط الالمانية . . وذات مساء من حزيـران ١٩٤٠ ، كان ضبـاب الصيف كثيفاً ، وكان الفلاحون يحـرقون كـومهم قبل مجيء الليل . اتذكر الكاهن الذي مات في غليير . . . كان ذلك في ليلة مثلجة كهذه ، وكنا نتقدم في خط قتال متلاحق . كان يحمل بندقيته ويمشي بطيئاً . تباطأت لأنتظره ، قـائلاً لـه : « بماذا تفكر ؟ » فقال : « احاول ان أرى المسيح » . ولما كان عليه أن يلفظ الصلاة الأولى لضحايا الادغال ، قال فقط : « يا رب ، الذي تسمعني ، اعطنا التسامح . . . . وعند المساء سقط بطيئاً بين زوابع الثلج . وانتهى زمان هذا الـرجل ، وزماني . وهي نهاية زمن مسيرة غاندي نحو المحيط ليجمع منه الملح ، ومسيره ماو نحو التيبت ليجمع منها الصين . وانها نهاية هتلر في زاوية غرفته الحصينة تحت الارض في برلين ، وهو يسمع جلحا المصفحات الروسية الأولى تصل ، ونهاية نهرو

متذكراً اعشاب سجنه ، ونهاية فرق ماو المعلقة على الجسر امام البنادق ، ونهاية فيتمنه الساحقة بالنابالم ، عند الاثداء المدماة الاندونيسيات اللواتي صرن شعائر الاحزاب المتعاقبة على الانتصار . تذكرت ليالي الهند الصينية ، ومدن الهند المتروكة للطواويس او للقردة ، والضياع التي صارت عواصم متلألئة كما عينا ذاك الهر الفوسفوريتان في ليل داكار . واتذكر الجيش الالماني الكانت فيالقه تغني في شوارعنا ، والمدن الالمانية حيث دخلنا مع مطلع ١٩٤٥ ، بين تلك الشبابيك الكانت فيها شراشف السرير اعلاماً بيضاء . واتذكر قول الجنرال في مأتم جان مولان : « ادخل هنا ، جان مولان ، بموكب جنازتك المهيب » .

وأتذكر برقيات لندن الى الادغال .. وعناصر البوليس الالمان حين كنا نحمل مسدسنا الأول ... واتذكر رفاقنا الضائعين ورفاقنا الموتى ... ومعسكرات الابادة الكانت تضيع فيها قوانا ... وحواجز الجزائر وآخر مؤتمر صحافي ضاج بكاميرات التلفزيون على منصة صالون الشرف حيث كانت تجري حفلات الباليه الكانت تلي مآدب استقبال الملوك ...

كانت اغصان الجوز تتكسر في الفضاء المنطفىء ...
فكرت بجوزاتي في الألزاس ، المرمية على الجذع ، والمهيأة تكون بذوراً من جديد : انها الحياة بلا ناس . وكان لنا ان نحاول القيام بما يستطيعه الانسان بيديه الزائلتين وفكره المعدم ، ازاء سلالة الاشجار الأقوى من المقابر . فهل الجنرال ديغول سيموت هنا ؟

مررنا أمام مرقب فيه حارس حامل بندقية ، وغادرنا ساحة

البـواسري الجنـائزيـة ، وفيها الآن ، آخـر رجل عـظيم هز فرنسا : هل هذه احتضار ام تحول ام وهم ؟

هبط الليل كلياً . . .

هذا الليل الذي يجهل التاريخ . . .

*

بعد الثلج الميروفنجي في كولومبي ، بدا لي ما ينشقه بنا القطار الى باريس ، ثلجاً مدينياً وعصرياً . . . وحدي ، في القطار ، بمن عساي ، الا به ، افكر ؟ كما ، وحدي ، في السيارة التي اقلتني بعد لقائي معه في اوتيل لابيروز . لكنه ، هذه المرة ، تغير قليلاً . وفقد ، نوعاً ، حواره اللجوج حول المستقبل : « الآن علينا النهوض بدولة موحدة ، وتجميد العملة ، وحل المشكلة الاستعمارية » .

طوال عشر سنوات ، كنت امام رجل مهاجم . واليوم كنت أمام رجل محاط منذ اشهر بهالة الوحدة والانفراد ، وجهاً لوجه مع ذاته ، ازاء قدر لم يعد يحميه شيء . كان مرة قال لي عن نابوليون : « لم يبق له وقت لروحه » . . . وها هو اليوم ، اظنه يصرف وقت روحه .

يمضي نهاره ساعات طويلة في الكتابة ، والشطب والتعديل ، عاملاً على فسحة الأمل ، حتى انه ، في عنوان كتابه ، ذكر الأمل . لم يهرب مني نبضه ، كما الآن ، ولم اشعر مرة ، كما الآن ، كم ان الذي يجسده ، لا يشبهه كثيراً .

حين قلت له : « شخصيات تاريخنا الكبيرة ، لم تطع الا ما ارادت هي ان تخدم » ، لم يجبني فوراً ، ثم قال : « أنا

كذلك ، كنت اسطورة » .

اسطورة ؟ اجل ، لكنها غريبة عن كل تأليه لشخصه ، فانها سابقة له . نحن نعرف وجوهاً من الخيال غائرة في الانسان ، بانتظار تجسدها الذي تظهره احياناً : فيوليوس قيصر كان يحلم بالاسكندر ، ونابوليون كان يحلم بيوليوس قيصر . والانسانية لم تحتج عصافير لتتخيل الملائكة (وهم علامة الانتصار الاغريقية) ولا فزاعات لتتخيل الاشباح . والجنرال ، عام ١٩٤٠ ، تقرب من الاسطورة بواسطة الاحتجاب وطغيان الحضور ، حتى باسمه . لم يكن الا هذا الاسم ، وتلك الرتبة التي كانت لعبت دوراً ضده لو كل ما كان يقوله وكل ما كان يقال عنه ، يتناقضان وكلمة جنرال .

وهو كان ليشبه قادة الحرب الاخيرة ، لو لم يتميز عنهم « بالكلمة » . وانما اقيمت المقارنة بين نداء ١٨ حزيران وجدول اعمال اجتماع المارن ، لو كان جوفر سجل النداء الثاني .

كان مر وقت لم نسمع فيه كليمانسو ، فيما سمعنا الكثيرين سواه . ذلك ان كلام فرنسا الحرة لم يكن هو نفسه كلام مجلس النواب .

وهو منذ اليوم الأول ، لم يكن رئيس بعثة اجنبية ، ولا رئيس حكومة في المنفى ، يتصدى للجنرال بيتان ، الذي كان يتولى لهجة غير منضبطة . الجنرال قال ان فرنسا شهدت غيره الكثيرين ، وكانت فرنسا ، هذه المرة ، تتكلم للمرة الاولى بدون تشبيهات ، لكي يسمع كلامها . فرنسا لم تخسر الحرب ؟

المنطق الكان يسمع وقتها : « اسمعوني ، فادا سمعتموني ، اكون حية » .

لعبت الايديولوجيا في ثورتنا ، دوراً جعل العقدي ، في نظرنا ، هو صاحب العقيدة لا تجسيدها فسان جوست ، مثلاً ، لم يكن يهتم بتطبيق آرائه في « الانظمة » ، بقدر ما كان همه العقدي الأول : السلام العام . ومن هنا ، ان خصم « مانيفست » ماركس ليست نظرية ديغولية ، بل نداء ١٨ حزيران .

ان الفرنسيين ـ لا أن ... تلميح الجنرال ـ هم الذين اخترعوا كلمة ديغولية ، ... خترعوا كلمة « الستالينيين » ، بينما في الولايات المتحدة ، لم تسر كلمة « الروزفلتيين » . وعبثاً حاول الجنرال ابعاد هذه الكلمة ، لانه كان يقترح ولاء ازاء كلمة « بيتانيين » ، عقيدة ازاء كلمة « شيوعيين » . مع ان الواقع الديغولي والعقائد ، ليست امراً واحداً في طبيعة واحدة . فالاسطورة النابوليونية ليست وليدة القانون المدني . وليست التوماوية هي التي تحرر أورليان ، ولا العمل الفرنسي او الماركسية تخلق فرنسا الحرة . فالجانداركية تيار غير وارد .

يوم ١٨ حزيران ، طرح الجنرال ديغول مبادئ السلام العام . والذين لم يسمعوه ، اعتبروه قائد بعثة اجنبية تائهة ، والمدافع عن الوطنية التقليدية . أما الذين سمعوه ، فظلوا مدهوشين . فكلما اعطى احد الى فرنسا هذه اللهجة الدورية (كما في اغريقيا القديمة) . ذلك ان وطنيته ليست التعصب الاعمى ، فيما كان الفرنسيون يخلطون بينهما . فلماذا كثيرون

من الفرنسيين اعتبروا من التقليد ـ او من الاستمرار ـ احدى اعمق هيولاتنا : هيولي الوطنية ؟ منذ ١٥٠ عاماً ، سرت وليس في فرنسا فقط ، تسمية شعور التفوق الوطني . وتنامي مفهوماً الدولانية والسلمية ، ضد مفهوم القوميات اكثر مما ضد مفهوم الاقليميات . كانت الأمة اليائسة ، التائهة ، الضالة ، تغمغم نداء مازوشياً يدعو الى التقاليد والعودة الى الامجاد الغائبة . فالوطنية التي تكلم عليها الجنرال كما على بديهة ، كانت مبنية على الحرية فقط : الألمان مكانهم في برلين لا في باريس . كان ضد الفاشية ، ولم تكن تكتلاتنا كذلك . كان الفرنسيون الأحرار يواصلون القتال (حملت اليه معركة بير حكيم رمزاً يائساً) وكان اعلن منذ اليوم الأول ان اللعبة خاسرة . كانت فرنسا تعتقد نفسها حية فيما محتضرة وتصرخ بالكارثة : جاء هو ، فخاطب هذا الضمير الواهي الذي يوحد الفرنسيين للمرة الأولى منذ امد طويل . لم تكن فرنسا ، الا صورة من ابينال ، وانما الجميع ، بفقدانهم فرنسا هم الخاصة ، اكتشفوا هم ايضاً انها ليست كذلك . انه تكلم بقوة لاعقلانية ما يعرفه الجميع ويسكتون عليه ، وعبر عن الاتحاد الكان يعطي الامة المسحوقة ابسط معادلات الحب : « انت ضرورية لي » .

من هنا ، ان هبته السماوية كانت اعادة فرنسا قريبة وقوية ، كما فعل القديس فرنسيس بالمسيح . فتقريب الالهي المقنع ، لدى اكثر الديانات ، هو زرع الشعور بالحضور الذي لا يقنع الا حضوره . ومن البديهي ان فرنسا لا تنتمي الى الفوطبيعي ، لكنها ، بهذا الحضور ، لم تعد تنتمي الى المجردات .

ان فرنسا الحرة جمعت اولئك الـذين ضمهم الى هذه الفرنسا المرة . وعند لحظة الحقيقة ، كان كل واحـد متعلقاً بمشاركته اكثر مما بهدفه . وكما « الاقتران بمعركة كبيرة » ، دعا الديغوليين الى الاقتران بفرنسا باسم الاطفال الذين سيولدون من هذا الاقتران ، فاندهش الفرنسيون لتنبههم أن فرنساهم ليست عاقر . كانوا يريدون كل شيء : ديغول وبيتان بدون سيغمـارنجن (المدينـة الالمـانيـة التي انتقلت اليهـا حكـومـة فيشي) .

هذا الماضي الأخوي ، وهو ايضاً ينتمي الى الاسطورة ، كان يمزج جاندارك بالجمعية التأسيسية ، في ديمقراطية متسلطة ووطنية . فهل لوكلير اتخذ اسمه المستعار من ذاك الفـارس لرفولي ، عام ١٧٩٢ ؟ عند نهاية الحرب ، كـان غرقت في النسيان خطابات الجنرال جيرو ، وبينها واحد يعلن ان الشعب الـذي يتكل عـلى السكرتيـرات ذوات الـطلاء الاحمـر عـلى أظافرهن ، لا يمكن يسير الا الى الهزيمة . وليس ادل على ذلك ، مما لم يكنه ديغول ومما كانته الوحدة التي فرضها على المقاومة ـ كما في لندن ـ وامكنت تحريراً رهيبـاً . وفي ما بعـد ، فهم الجميع ان همه التوحيد ظهر مفهوم الوطنية .

كانت ايديولوجيته الابسط ، تحير . كان يمكن ان يكون قائد بغتة ، او وطنياً تقليدياً ، او ديكتـاتوراً او فـاشياً لان المعطيات المعـروفة اقـوى من البديهـة . والمؤرخ الممكن ان يجيب ـ قبل قراراته الرئيسة ، عن السؤال البسيط : « ما عليه ان يحاول ، في الاوضاع الحالية ، رجل يمسك بمصلحة الامة على أنها القرار الاعلى ؟ » ، كان اعتبر عرافاً .

إن فرنسا مدينة لديغول بايمانها في نفسها على هذا الشكل ، اذ كانت تؤمن في نفسها اقل . فالمصلحة العامة ، والخير المشترك ، وكتب روبسبيار وريشليو ، جميعها كانت تبدو ثرثرات ، اذ إختلط ـ في كذبة واحدة ـ كل ما كان يقوله السياسيون . ولم يكن سهلاً امر السيطرة على الديمقراطيات المعتادة ان تترف مبادئها دون ان تعرف باسم ماذا . وان تكون مبادئه جيدة او سيئة ، لم يكن الجنرال يترقبها .

والى هذا ، تجاسر وسمى انقلاباً ، ما حدث في داكار ، وانتصارات رومل ، والعلم الهتلري على الأكروبول ، والانهزامات الروسية . لذا ، فهمه الذي بحجم التاريخ ، وكرهه للسياسة ، وايمانه الكان يشبه تعزية امام نعش ، والـ « لا » التي منذ قالها ، « اول يوم » ، اتخذت حجم اللاءات التاريخية الكبرى ، وصوته ـ دائمًا دون وجهه ـ ، جميعها عوامل ساهمت ـ منذ بدأ يحالفه الحظ ـ في أن تجعل من هذا الصوت ، صوت فرنسا . ذلك ان تلك الـ « لا » المنفردة كانت تزرع ايماناً ذا مستوى ديني عميق . فالايمان هنا ليس شعوراً عقلانياً ، ولا « لا » انطيفون وبروميتيه . وهو لا يعكس رأياً بل يتضمن البؤس والامل » . . . انها « قوانين اكثر جبرية وسمواً من القوانين البشرية » ، وانها بديها مستقبلية « اكثر جبرية وسمواً » من الحاضر . من هنا ان الطريقة الأثبت لعدم فهم الجنرال ديغول ، كانت اعتباره لوكلير آخر ، اذ كان الجميع في انتظار قائد بطل للمصفحات ، جاءت الاسطورة فحلت محله ومحل صورة الجنرال الرجعية . وذلك لم يأت دون جهد ، اذ ان تلك الصورة كانت صارت ذات تقليد واضح ،

جعلت الكثيرين ينسون ما حفظوه من صورة عن الرومان . والجنرال ديغول لم يقد بنفسه اية من قوات فرنسا الحرة . وما كان يقوله ، لم يكن صحيحاً لأن الحدث كان يثبته ، بل كان يصير ديغول لأنه كان يتكلم بهذه اللهجة . لم يكن جنرالاً فرنسياً يحارب في لندن ، بل خلق من هذه الكلمات ، بدون صورة ، بمعنى أن كل خالق كبير يصبح اسطورة تثيرها اعماله .

والاسطورة لا تنحصر فقط في الحركات التي تثيرها ، ولا في ما تخدم ، ولا في من تخدم . لذا ، كانت اسطورته آخر هيولي لأسطورة فرنسا ، التي لاتظهر الا من خلال الهيولات . ومع ان اساطير كهذه تتغذى من الخيال الذي يسبقها ، تفرض نفسها بما لا يخضع لما يسبقها ، كما ابطال الروايات الكبيرة ينتسبون الى الوهم ، انما لا يفرضون نفسهم الا بما يميزهم عن اسلافهم . فالاسطورة ليس تقليد عذراء الفراشات ، بل هي الفراشة نفسها . وهذا ما يمكن الهند ان تسميه : تقمص الامم .

كان للتحرير ان يجسد تلك الاسطورة ، دون ان يكون لها الوقت لتحطيمها ، وفيلكس غوين دفع الفرنسيين للعودة الى كره سياسييهم . ثم نشأت حركة الجمهوريين الشعبيين الفرنسيين ، لكنها لم تكن تملك اذاعة ولا تلفزيوناً . وبقيت ، حتى انتصاراتها في الانتخابات البلدية ، حركة تمردية ، الا على الجنرال ديغول . وكان انتصار آخر محدود ـ او متسع ـ بحسب عدد المناضلين مقارناً مع عدد المقترعين . كثيرون اخذوا كلمة تجميع في محمل طيب ، فيما قصد بها الجنرال اعمق معنى بعد

كلمة الأمة . وكثيراً ما قيـل - حتى قبل مـاركس - ان هذه الكلمة لا تعني سوى الوهم او المكر . فـ ـ يمكن اقناع الذي طوال خمس سنوات لم يحاول الا ذلك ، ضد كل التيارات ؟ ها هو يقول : « لن ينسى التاريخ انني ، في لندن ، استقبلت كل الناس » . وأنبل الاهـداف تلك التي لا نبلغها قط : ارادة الوحدة ، وارادة العدالة . فلدى اخصام الجنرال ، كانت إرادة التجميع فكرة طوباويـة ، كما كانت الاشتراكية لدى اخصامها ، حتى دخول لينين الساحة . من هنا ، ان الطوباويات تبقى الشكل الافضل للامل لدى الاخصام .

فنسان اوريول اخترع التحالفات الانتخابية : جمع اصوات الاحـزاب المتحالفـة ، اي جميعها تقـريباً ، ضـد الشيـوعيـة والديغولية ، أو أن الجنرال كان يحالف حركة تجميع الشعب الفرنسي (مع الحركة الجمهورية الشعبية مثلاً) ، لكنه بهذا كان يدخل في نظام الاحزاب ، او أنه كان يرفض ، ويؤمن انتصار قوة ثالثة قد تتهمه بالتحضير لحزب واحد . ذلك ان اكثرية اعضاء التجميع لم تكن تفهم ان الحزب الواحد ، في مفهوم الجنرال ، اياً كان هذا الحزب ، يفسد الدولة . وكان اخصامه يخشون ان يختار الصيغة الأولى ، لكنه لم يعلنها . ولم يجزم بين النجاح والخسارة ، بل قرر ان يستـدعي المصلحة العـامة لـلامة ، ولم يكن يـرى ذلك وهمـاً ، اذ كان يؤمن بالتجربة الرئيسـة في حياته : كانت فرنسا الحرة وحدت قوى مبعثرة ، في عمل واحد . وحتى جان مولان كان يقول : بعد الانتصار نناقش . وحين قال ان الحكم يحتاج الى لملمة ، رفض المجازفة بالحرب الاهلية للملمته ، حتى حين تأكـد من ان

التحالفات ستقضي على حركة تجميع الشعب الفرنسي اذا لم تدع هذه الى الثورة المسلحة والعصيان . فمنذ ٦ شباط ، كانت حرب اسبانيا (والخشية من حرب اهلية لا تخيف المصادقة فيها عسكرياً ، بقدر ما تخيف نتيجة ان تصير البلاد لعشرين عاماً او ثلاثين ، بلاداً متخلفة) هي العامل الاقوى في تاريخنا . لم يقبله البرلمانيون ، لذا كان فضله على عودة الجنرال ان لم يكن على انتصاره ، لأن الذي عاد عام ١٩٥٨ ، كان جنرال التحرير ، لا قائد حركة تجميع الشعب الفرنسي . فبعد ديان بيان فو ، وبعد آضراب البوليس ، لم يعد النظام خاضعاً لحزب او لمجلس ، بل متروكاً ، كما كانت عليه الجمهورية الثالثة بعد الهدنة . من هنا غلطة الرئيس روزفلت حين اعتقد ان فرنسا يمكنها استعادتها ، اذ كانت باتت متروكة كما الحكم بعد سدان .

وكان الجنرال ناهض حكم الاحزاب ، على غير صعيد :

ناهض ضعفه ، وعجزه عن مواجهة فشل ذريع : نهاية الحكم

وناهض لامسؤوليته ، واضطراره الى رفع التسوية حتى مستوى اسلوب الحكم ، مما اسميته : الموافقة بين المعطيات الموافقة الدفاع الوطني ، في وضع نصف جندي في كل نصف مجنزرة .

وناهض التأثيرات المتناقضة من الخارج ، وهي ذات الطابع المأساوي يزيده تعاقب الحكومات . هكذا ، يرتكز هذا التعاقب المنطقي على فرضية اكيدة هي ان معارضة الحكم ستكمل

سياسة من تحل مكانهم ، حين تدخل المصلحة الوطنية في خطر .

وناضل اخيراً عجز فرض السلام كما فرض الحرب ـ التي كانت ستنتصر في افريقيا السوداء ـ وعجز التوصل الى وعي إرادة وطنية .

انها افكار نضالية ، تفرضها سلطته في التفكير . والى ذلك ، ربما الجنرال ديغول كان يفكر ان الاحزاب انتهت مع ولادة الاحزاب الواحدة التي لم يكن ينافسها الا بمفهوم للدولة كمفهوم ريشليو او انكلترا الملكة فيكتوريا ، فيما تلك الاحزاب لم تكن تهتم من ذلك المفهوم ، الا بمشاطرة ديغول الحكم .

هكذا الشعوب تمجد ارباب الايمان بها : كولومب ، الصامت غيّوم الأول ، فريدريك الثاني ، بطرس الاكبر ، لينين . وعندنا : الجمعية التأسيسية ، قادة الحملات الصليبية الأولى ، ريشليو ، نابوليون . وهو شعور غير معمق لاختلاطه مع وثوقية الفرص المنطقية ، فيما هو ايماني حدسي اكثر منه حكمًا تقريرياً ، وهو ينطبق غالباً على سلسلة من الأعمال المتعارضة . وهذه الثقة نفسها ، جعلت من مسألة الجزائر « غير مطروحة كما من قبل » حتى لدى اخصامها .

بهذا ، استعاد الجنرال طابعه الاسطوري . فالنواب ـ ليلة انطفاء هياجهم للرحيل (لا للقتال ، اذ لم يعدَ لديهم حتى ولا شرطة تعترض مظليي الجزائر) كانوا انتخبوه في مرارة ، اذ كانوا يعرفون انه لم يناد الرؤساء غي موليه وبيناي وبفليملز ، من اجل مراضاتهم ، ولا عن هم البروتوكول الشرعي ، مع

انهم لم يفهموا قط رفضه المغامرة بترك الدولة لحزب واحد ، حتى ولو كان هذا ، حزب تجميع الشعب الفرنسي . بهذا ، لم يكن ديغول رئيسهم المنتخب الذي يرضى بالذهاب الى الجزائر ، بل الرجل الوحيد الذي يستمع اليه الجزائريون والجيش ، بل ينصتون اليه . كان « الخلاص الاكبر » ، والوحيد الممكن ان يتكلم باسم فرنسا دون ان يقابله الحاضرون بهزة كتف لامبالية . وكان ذلك واضحاً من نداء الرئيس كوتي . وفي الجمعية العمومية ، ليلة عودته ، وجد فرنسا التي يجمع عليها اصدقاؤه واخصامه ، فاتحة ذراعيها لاستقباله .

وكانت حكيمة في ذاك الخيار . لكن الذين حوله لم يكونوا على اطمئنان . لم يكونوا ، قط ، معتبرين بان حكومته حكومة انتقالية ، ولا فقط كان اليمين الجزائري يهتف : « عبد الناصر بعد محمد نجيب » ، بل اكثر المناضلين الديغوليين كانوا ينتظرون ثورتهم . على أنه ، كان سيطبق اخطر قرار اتخذه منذ ١٨ حزيران ١٩٤٠ ، التصدي لنشوء الحزب الواحد .

كنا نعرف ان هذا تصميمه ، إنما لم نكن نعرف لماذا . هل هي مسألة دون جدوى ؟ هل وجد نفسه غريباً عن فكرة ايجاد الحزب الواحد ، عوض احياء الحزب الراديكالي ؟ هل كان يعتقد بأن رسالة فرنسا ، وهو حاول ايجادها عبر الاتحاد لكن حرب الجزائر كانت شديدة الرهان ـ كانت تفترض هذا التصميم ؟ بين الحماقات السائدة ، كانت حماقة « الحكم » اشدها لمعاناً . وصارت عملية الحكم ، من وجهة نظر الحكام ، عملية مذنبة . فكل حكم كان ينهكه الخبراء في

العقم السياسي ، الذين كانوا يمارسونه لانهم يتقنونه . فالفرنسيون لا يفهمون الحكم قط ، وما يفهمونه : استغلال الحكم ، هذه الفكرة الواضحة المرتبطة بالتاريخ منذ فيكتور هوغو حتى الكسندر دوما . الله ، على ذاك الزمان المبارك ، حين لم يكن احد يغفر للحكم الديغولي ، وحين كنا مع الجنرال نتلقى الهجومات اليومية لانهاك الحكم .

والجنرال ، حتى يوم رحيله ، كان رئيس دولة شرعياً . وصورة الاحتفال الذي به ترك نابوليون روما مع جيشه ، ثم يعود يرتدي ثوب السلطة بعد الانتصار ، كانت من صوره المحببة : وثوبه الاحمر هو الشاهد .

ذات يوم ، رأيته يدافع (ببعض الانفعال الغاضب) عن الحصانات البلدية التي كان البعض يستغلها ، معتبراً ان المجالس البلدية ـ لما دون العشرين الف نسمة ـ هي وسائط جيدة لفرنسا . فهو لم يكن يحتمل ـ في ارتياح ـ موقف مجلس الدولة ، ويعتبر مجلس الشيوخ اضعف مؤسساتنا ، لذا ، راهن على طرح تغيير شكله . فهل تراه ما زال متعلقاً بحكم « محدد » ، وبشعور ينضح بميزة متفوقة للحضارة ، على فرنسا المحافظة عليها ، كما حافظت على الجمهورية ؟

كان ديغول يعرف المعادلة الهيغيلية ، وبأن خلود الشعب ليس خلود مجموع افراده . فالادارة العامة ـ وهي خالدة حكماً ـ تتمم القدر التاريخي ، مع او بدون موافقة الافراد الذين يجهلونها او لا يهتمون بها (وهذه معادلة تتفق واستيعاب الحزب الشيوعي للبروليتاريا) . فهل قدر فرنسا لم يكن وقفاً على الكانوا يهتمون

به ؟ جوابه عن هذا كان ، وان ببعض الهجومية ، ان الحكم لا يمارس الا من السلطة/ الدولة .

قالها غير مرة . ولدى سماعها ، يستبعد المصغي كل سوء تفاهم . لكن الناس لا يسمعون الا ما حفظوه غيباً . اقله ، ذلك القرار الذي لم تفسر مذكراته بعد ، والذي قاله مرة لي همساً : « ان حكاية الفاشية الدائمة هذه ، سخيفة . لا علاقة لنا مع هؤلاء الناس . والمنحدر الخطر لن يودي بنا الى الفاشية ، بل الى الملكية . وحتى رحيله ، ظل اخصامه يحددون حكمه على انه فاشية تتحصر » .

من هنا ، كان يقول : « لماذا الانظمة الديمقراطية البروتستانتية ـ السكندينافية والانكلوساكسونية ـ تجد نفسها في انظمة اليسار المتوسطية ، وهي لا تشبهها الا لماماً ؟ لماذا يعتقد الناس انني اهيء دولة توتاليتارية ؟ من اقام الجمهورية ، واطلق الحريات الفردية ؟ اود ان افهم سيرورة كل هذا . . . » .

لكنه بلغ التلفزيون ، وغير طبيعة الافكار من خلال الشاشة . ومكان صور الوزراء الجدد وتوزيع الجوائز ، حلت صور طائرته متوجهة صوب الجنوب ، ومكان صور التهانيء ، حل مؤتمر الجزائر . . وسواء كرهاً ام اعجاباً ، حل التاريخ على شاشة التلفزيون ، مكان السياسة . ويوم ١٤ تموز ، ولأول مرة في ساحة الكونكورد ، رفعت اعلام مؤقتة . وذكر ان سفيراً ستالينياً انحنى عليّ قائلاً ببعض السخرية : « حتى نحن ، الثوار القدامى ، هذا امر يهزنا » . . . لم يكن مشاهدو التلفزيون يشاركون هذه المهارات ، انما يتساءلون عن الجامع المشترك بين

ما يشاهدون ، وما لم يشاهدوه في العام الفائت ؟ وبنهاية الحكم ، التي صارت عيد الاتحادات ، وبمرسلياز برليوز مستعادة من جديد ، وبالجزائر المضطربة وافريقيا الصديقة ، كانت فرنسا تطل على الشاشة الصغيرة . كانت المؤتمرات الصحافية تتكلم على الأحداث العالمية ، والصدى - يجيب : بم تتدخلون ؟ والمانوية الكانت تعارض الديغوليين بمناهضي الديغولية ، والتي لم يكن لها سابق الا ما عارض الشيوعيين بمناهضي الشيوعية (مع ان الشيوعية ايضاً اسطورة) حرك التغير النهائي كما يتم تحريك حلقة تلفزيونية . وهكذا ، ادخل التلفزيون الديغولية الى المنازل الفرنسية عن طريق التاريخ ، كما الاذاعة ادخلت صوت الجنرال الى تلك المنازل ، على أنه صوت فرنسا . هكذا ، لم تتغير البرامج ، بل تغير القدر .

السياسيون ، يرون في الحكم ، توزيع المقاعد ، وانتصار شعائرهم . وهم اتهموا الجنرال باضطراب الميزان بسبب ثقل سلطته ، غير فاهمين انه ، هو نفسه باق ، الرهان الثابت للمجازفة ، بشخصه او بالتزامه . فانتصار مظليي الجزائر لم يكن يعني ضرورة تعديل الوزارة ، ولا انتصار مثيري الفتنة عام ١٩٦٨ . كما الانقلاب على الرئيس ليس كما حين الرئيس نفسه يقدم استقالته . ان الاسطورة تتساقط في الوهم ، كما البطولة . لكنها تولد اشتراكاً في عمق كل واحد منا . من هنا ، اخصام الجنرال يمزجون دائماً بينه وبين تقليده ، لكنهم - رفضوه او قبلوه - يعرفون ضرورة قتل جوريس دائماً . فالاسطورة تغذي الاسطورة : الرئيس بلباسه الرسمي ، ضد جنرالات الجزائر ، والجنرال ديغول منتصباً كما منهير (نصب حجري ضخم) لدى

دخول رفات جان مولان الى البانتيون ، في ذاك المعطف المقفل الذي لم يكن لبسه منذ الرسو . وهكذا ، امسكت افعاله بينه وبين الاحداث علاقة وثيقة لا تستبدلها ظاهرة ، حتى ولا العقائد . فهل يمكن تصور جنرال ديغول يعبر عن مواقفه بكتاب بدل موقف ١٨ حزيران ؟

ولكن ، وراء الاسطورة ، يقف شخص ذو خبرة ورصانة ، يقول : « الامور هي ما هي عليه » ، كما لو انه ينصاع لها ، فيما يهم بالتقاط زمامها . بهذا ، يكون جمع الوهم والواقع ، لا في لجم ميوله ، بقدر ما في جمع قوى متناقضة : من جهة ، الديغوليون المتعصبون ، اي جميع المناضلين ، ومن جهة اخرى ، الاكثرية الصامتة الكانت تبدأ بالكلام على الايمان وتنتهي بالتحسر على ديغول . لذا ، كان يبشر دائماً بان الانظمة الديمقراطية فقدت الحماس الذي يغذي تجمعاتها ، وبأنها الآن تتغذى من اكثريات زهيدة تجعل من ٥٥٪ ضد ٤٥٪ انتصاراً ساحقاً . وفي الاستفتاء حول الجزائر ، الذي اعلنت اوروبا واميركا فيه ان فرنسا تتبعه ، لم يبلغ الاقل بـ ٩٠٪ ثلثي المسجلين . من هنا ، نداؤه الدائم الى التاريخ الكان يجيبه مرة كل اثنتين برداءات ، والتاريخ صنع الاكثريات المتحمسة ، فيما ديغول عرف تظاهرات الشانزيليزيه عند التحرير ، وفرنسا حوله ضد منظمة الجيش السري . ومنذئذ راح يعمل في هوامش ضيقة كما القدر .

كان دائماً يتساءل : « لماذا لا تكون اكثرية النساء على الرجال في القطاعات الساحلية او المواطنون الذين تبدأ اسماؤهم بحرف « أ » ؟ . كان يأمل ان يجمع حوله ـ في مناصب للسلام العام ـ

جماعات ١٩٤٤ . ولكن هذه ، مم ولدت ان لم يكن من هوى تلك الجماعات الجارف لفرنسا الحرة والمقاومة ؟ عند الرسو ، كان في امرته متطوعون اقل مما كان جند في امرة فيشي .

ذلك ان قدر فرنسا الذي تكفل به المقاتلون ، بات ملكاً لفئة المقترعين الذين باتوا - دون ان يدركوا - يمسكون بالشرعية الوطنية . ولم يغير ، هو ، شيئاً في ذلك . فانما كان عليه اقناع هؤلاء بالذات ، كما لو ان فرنسا لعبت مصيرها بالنرد . فالوسائل التي استعملها خصومه ، لاقناع العدد الاكبر من المقترعين : عزاباً وشيوخاً وجماعات خاصة ، سقطت جميعها . هو ، لم يحاول اقناع احد . كان يؤمن أنه يضمهم اليه ، بضم فرنسا الى قلبه ، وانه لن يمسك بزمام فرنسا الا اذا بلغ قلوب هؤلاء ، ولن يبلغ قلوبهم الا اذا خاطبهم بحجم فرنسا . كان واثقاً من المستقبل.، وهو على رأس بحارة جزيرة سان ، اكثر من نسبة ٥١٪ من المقترعين . لكنه كان قبلئذ اقام الامة انطلاقاً من وسائل اقل فعالية ، وشعاره : « يجب ان نواجه الامور بما نملك . . . وهنري الرابع لم يكن ينتظر وسائل طوال النهار » .

لدى سماعه الشريط المسجل لخطاب بنوم بنه ، عند العودة من كمبوديا ، بدا مرتبكاً لسماعه صوت فرنسا الحية ، كما سيدة ، لدى عودتها من جولتها في السوق ، تجد سلتها ممتلئة نجوماً . وهو لاحظ ان الفرنسيين - الذين يخلطون الدولة مع الادارة - كانوا يرضون قانون المسؤولية العظمى تجاه فرنسا - المعطاة من الشعب - والممارسة من الدولة .

دائماً هاجسه فرنسا ، ولم تساله يوماً . السائل الملحّ ، كان

الدولة . وكان يتحدث عنها كما عن بونابارت قنصلاً ، وكما العلماء عن العلم : كميدان قوي تغذيه المغامرة . من هنا كان يأخذ على القديس اغسطينوس غياب التفكير السياسي عنده . لذا ، بدا القانون الجديد له ، ملحاً تماماً كما الجزائر . فليس من سلم عام بدون تجنيد ، ولا تجنيد دون الدولة الثورية التي اطلعته وفرضته قانوناً . وليس من امة بدون دولة ، كما فهموها منظرو الاممية الكانوا يفرضون غيابها . بينما الجنرال لا يرى ، ولم ير قط في الدولة ، جهاز سلطة طبقة ، بل وسيط الوحدة الوطنية المهددة دائماً . وكذلك كانت ترى الجمعية التأسيسية . كان يقول ان اكبر خادمي فرنسا ، خدموها وهم يحولون الدولة ، فلا يمكن تصور بونابارت قائداً عاماً للويس السادس عشر .

ان الملكيات والجمهوريات اعطت للامة شكلاً ، بدونه كانت ستبقى جسداً بلا روح ، ومفهوماً مطلقاً بدون تاريخ . ومثلما ريشليو ، كان يعتبر مهمته الأولى خلق الدولة ودعمها ، مما يخدم فرنسا بشكل رئيسي .

وثمة عوامل (كما العمل ، والمهارة ، والصناعة ، وتجارة فرنسا ١٦٢٠) لم تكن مختلفة عن عوامل فرنسا ١٦٥٠ ، حين كانت اقوى ملكية للمسيحية . من هنا ترديد الجنرال : « حين يتحد الفرنسيون . . . عندها . . . » ، مما كان يدل على شعوره بامكان تحريك تاريخي هائل ، لا معود تلتصق به دولة الاوهام والفوضى . من هنا ان الدولة الكان يحلم بها ، كانت عكس الادارة . فهذه تدير ما يستمر ، وتلك ، ما يتغير . دولته كانت اداة المستقبل في الامة ، واقوى وسيلة لتنسيق قواه . كان يقول : « لم نفعل شيئاً كثيراً منذ نابوليون . . . الا جهلنا دولة

ننتظر منها كل شيء ، حتى حقنا في السعادة » . لذا تعلق جداً بفعالية جهاز الدولة ، وكان يرى فيه اكثر من جهاز : بنية حية واسيرة ، تنتظر تحريرها من الجمود والامتثالية ، والاقطاعات النقابية واقطاعات أرباب المهن ، ومن الخرافات ، اي كل ما يمكن ان ينافس قيام الدولة . وهو حلم بذلك في قصة كما قصص الحرب التي هي ، اولاً ، قصص الجيوش . وانه كتب قصة الجيش الفرنسي . واذا عدةَ ضباط تعاملوا مع الستراتيجية ، فأبرز مؤرخ للجيوش ، دلبروك ، ليس عسكرياً ، بل استاذ . فاستخدام القذافات والبندقيات القديمة ، ينتظم وينمو كما استخدام المصفحات . وهذه التحركات الفاصلة ، في الحروب ، ليست عسكرية ، كما مثلاً : التجنيد الذي فرضته فرنسا في نداء : « الامة في خطر » ، الذي ولدت منه التحركات العامة . وكما نابوليون ، كان الاسكندر اخترع توجيهاته العسكرية وتوجيهاته المدنية ، فرسان الجمعيات والهيكلية الإدارية للمناطق المحتلة . لذا ، كان الجنرال يقول عام ١٩٦٠ : « دولتنا متخلفة عن العصر نصف قرن ، في التقنيات ، وحتى في مفاهيمنا السياسية » . وهو كان أعاد تنظيم الدولة عامي ١٩٤٥ و ١٩٥٨ . ويكمل : « والآن ، يجب على فرنسا ان تنشىء دولاً » . وكان يقصد من ذلك ، خلق جيش البغتات . فهو كان اهتم بتكوين الاقسام كما مع جيش شارل السابع . كان يعرف كل واحد من رؤساء الاقسام ، ويعرف « اختراع » الحريات الأولى كما زمن الضريبة الدائمة الأولى ، او الضمان الاجتماعي ، حتى أن أحد وزرائه ، قال لي متضايقاً : « في هذه الحال ، يجب ان يفتح المعهد الوطني للادارة ، كل صباح » . اما هو فكان يقول : « سلطة الدولة كانت سداً بين

احزاب تتسابق على اكتساب الاكثرية ، لتحكم في مسائل كانت تجهلها » .

كان العالم النقابي باقياً على الهامش ، رغم المليون ونصف المليون من الاصوات الشيوعية . وكان الجنرال تمنى ان تقام معه العلاقة الكانت اقيمت معه في لندن . فمنذ عودته ، اعاد للنقابات حريتها ، اذ كان يرى فيها تمثيلاً اكثر جدية من الاحزاب ، دفاعاً عن الاعتراضات المهنية . لكن الاهداف المشتركة في لندن : اللافاشية ، والنصر ، وسواهما ، لم تعد في الوارد . . . والقطيعة مع ليون جوهو عام ١٩٤٦ ، كانت حاسمة . فتدخله في القرار السياسي ، جعل ديغول ينقله من المعسكر الشعبي الى معسكر الاقطاعات الحديثة . ولدى تبلغه رفض ديغول استقباله ، قال ان الجنرال عدو الطبقة الشعبية . وفي الظروف نفسها ، رفض بدوره استقبال رئيس نقابات ارباب المهن بالطريقة نفسها .

على أن معارضة ١٩٤٦ النقابية ، او بعد ١٩٥٨ ، لم تضع الدولة في خطر ، ولا نمو البلاد وازدهارها . مع ان الديمقراطية تفترض معارضة . ولا شك ان الجنرال كان سيختار غيرها .

وهو ، باكراً ، واجه معارضة الصحافة . ذلك ان الصحف (في مهاجمتها دون هوادة ، وباسم الديمقراطية الصادقة والخلقية السياسية ، الفاشية المستقبلية بشخص ديغول) بقيت طوال سنوات تعبر عن رفض مشترك لدى المثقفين الذين لم يميلوا الى الجنرال ديغول . ذلك ان الشيوعيين وحدهم كانوا يطالبون بحكومة بديلة لا يمكنهم الإتيان بها وحدهم . والتمثيل النفساني ، بل الكوميديا الايطالية التي فيها « اعيدوا هذا

المشهد » ، وهو موجه الى الجنرال ، صارت اوضح من شهر الى شهر : فصار المؤرخ يكتشف ان الانتليجنسيا والسياسيين لم يؤمنوا بالثورة البروليتارية ولا بالعودة الى الجمهورية الرابعة . وفعلاً ، في المواقف الصعبة ، لم يكن الخيار واضحاً . وعن « ما العمل ؟ » للتحرك ، كان جوابه : مقالات .

والواقع ان المثقفين لم يحرجوا قط من حوار الطرشان ، وظلوا يتعارضون في عقائد سخيفة ، لأن الديغولية وحدها هي الجواب عن مسألة فرنسا ، دون ان يكون لها امتداد في أي نظام . فالجمهورية الأولى ، واشتراكية الثانية ، ضمتا انظمتا عصرهما . جاء ماركس فنظمها . انما في السوربون وسواها ، لم يحل مكان برودون وباكونين ، بل مكان « العمل الفرنسي » ، وتحت انظار الجنرال ، الكان يعرفه جيداً . ذلك ان فكرته المتشككة ، لا تختلط مع اي نظام . فالفكرة والكلمة تتناهضان معه ، حتى سمى سلوك الاحزاب « نظاماً » . لم يكن يهتم بما كان عليه التاريخ او الدولة او هو نفسه ، بل بما عليه ان يصنع بالتاريخ او بالدولة او بنفسه . كان يوافق بوذا ، في القول الذي ذكرته عنه له : « اذا رأيت صديقك مطعوناً بسهم ، هل تتأمل طبيعة السهم ، ام تنتزع السهم من صدره ! » . لذا كان يهمه حكم فرنسا كما ماركس او موراس حكم البروليتاريا او الملكية ، لكن فرنساه لم تكن فكرة مجردة في المطلق ، فلم يكن بها يخاطب التاريخ بل السلام العام .

ان انتصار الماركسية ليس في أنها اقنعت الغرب ، بل في أنها ، للكثيرين من الغربيين ، جعلت من المسألة التي تطرحها ، مسألتهم الرئيسة . ولكن لا يمكن وضع عقيدة ـ ولو مهمة ـ في

مجابهة عمل ، ولو مثالي . فالجنرال لم يجعل مسائله خاضعة لتقويم مسبق ، وخاصة مسألة الدولة ، اذ الانتساب الى أفكاره يمر بالانتساب الى اسطورته . وتبقى عربية عنه كل محاولة انتمائية ماركسية . فالتاريخ الذي يبلغ عنده حجم القدر ، هو ما يتكلم عليه روسو . لذلك ، لا يتخذ المستقبل معيناً ، بل خصماً ، لا تكفيه أية تيارات لتنتظم فرنسا وتبقى . وباتت الماركسية تتفاوض مع الواقع الوطني الغريب الذي يراه الجنرال في عمق مواجهة العصر . هل في الموصوع وراثة الامم ؟ هذه الجزائر ، ولم تكن يوماً ، امة ، صارت امة . والفيتنام ، ولا يهم ايهما ، ستصير امة . وفي افريقيا ، الاتحادات تنشأ بشكل سيء ، والامم تتكاثر . وفكرة الامة ليست على خصومة مع الجنرال . فماوتسي تونغ ، حدثني عن ديغول قبل ان يحدثني عن فرنسا . والماضي يعطي موقف الشيوعيين الوطني وضوحاً لا يعرفها الحاضر . وكان شيوعيو ١٩٤٥ ، حاولوا ضم حركات المقاومة ، باسم شيوعية ليبيرالية ، شبيهة بشيوعية ربيع براغ . فهل من يؤمن اليوم بأن ستالين ١٩٤٥ كان سيتسامح مع ربيع باريس ؟ والكلام هنا ، على الستالينية الحقة ، والجنرال عرف ستالين عن قرب .

وحين رفض ان يعطي توريز ودوكلو وزارتين طلباهما ، قال لهما : «انتما اخترتما . أنا لا حق لي في الاختيار» . فبأي مقياس كان يأمل - ان لم يكن اصلاح وضع الشيوعيين في الدولة - فعلى الاقل التوصل الى طريقة حياة معهم ، يساعده في ذلك الميثاق الفرنسي السوفياتي ؟ الشيوعيون ، في لندن والجزائر وايام التحرير ، كانوا تبعوه . انما ببعض النوايا المبيتة . ولكن ، في

تلك الاثناء ، كانت الميليشيات صارت بحكم المحلولة .

وهو كان نقل عبارة ليين . « لم تنته ثورة الا وقوي بعدها حكم الدولة » . ولم يكن يجهل كم كان ليين اضعف الدولة ، كما انغلز ، وكما ماركس . وكثيراً ما كان ديغول ينظر الى الشيوعيين ، كما ماركسي ينظر الى المثاليين . وكانت وجهة نظره تحيرهم ـ كما كل ما لدى الخصم ، ولا ينتمي الى الرأسمالية ولا الى اليسار ـ . ولكن ، هم ايضاً ، كانوا يضللونه . مرة سمعته يتساءل : « ما يكون مصير الشيوعية بعد خمسين عاماً ؟ » ليجيبه دوكلو : « ستبقى على حالها » . وبعد انصراف دوكلو ، نظر الي : « هل يعتقد ، حاسماً ، ذلك ؟ » ، فقلت له . « نعم فانت خصمهم وما يقال للخصم يكون دائماً صحيحاً . وحسم « كان يلزمهم الكثير للايمان بفرنسا مثلما آمنوا بروسيا . مع انهم يعملون ويعملون ، وفرنسا في حاجة الى العالم كله » .

حتى لو لم يجد سوى فرصة واحدة لاقامة وحدة الدولة وتماسكها ، كان عليه ان يلعب ، ولو مع مراوغين غشاشين ولم يتوقع ، (هو الذي كان توقع عدة احداث) انهم سيغدرون به مع افتتاح الجمعية العمومية . وكان على حق في اقتناعه انهم لن يقوموا باية ثورة ، اذ كان حافظاً ذكرى الاحزاب التي عرفها قبل الحرب ، وذكرى الشيوعية التي عرفها في لندن . لذا ، لم يجد امامه الاحزاب ، لضعفها وتصعصها ، ولا الشيوعية التي كان كل عنصر فيها (عدا توريز) يعتبر نفسه لينين والجميع يعتبرونه كرنسكي . والواقع ، ان جميع الانظمة الديمقراطية ولدة من اجماع لم يدم ـ أمام حزب ستاليني قوي ، ويدعي المجيء من الديمقراطية نفسها . صحيح ان هذا الحزب لم يكن من القوة

بحيث يستلم الحكم ، لكنه من الشراسة بحيث يهدم الدولة ، لأن الخارطة السياسية ، وحتى البرلمانية ، لا تقوم نسبة اليه ، بل نسبة الى الستالينية . واليمين الحقيقي يضمحل ، لتقوم مكانها ـ كما بالامس ـ الفاشية ، وكما اليوم : ظاهرة كبار الضباط والمستقلين الذين يريدون ان يكونوا ليبراليين ، والليبراليين الذين يريدون ان يكونوا مستقلين . هكذا ، كانت اشتراكية الأمس ، العدالة والدولانية ضد النظام والجيش . من هنا ، ان الستالينيين يدعون المطالبة بالنظام والامة والجيش والعدالة ـ عدالتهم ـ في مزايدة مستمرة . وهم لا يغامرون بشيء ، لأنهم يريدون هدم الدولة ، فيما الاحزاب يغامرون بكل شيء لأنهم يريدون دعم الدولة او توطيدها .

وما تم انتخاب الجمعية الوطنية ، حتى لم يبق من الفاشية سوى دمية ستالينية . واعتبرت حكومات غربية ان في امكانها اعادة العلاقات مع الاحزاب الشيوعية ، في حوار قطعته الحرب . ولم تعد الاحزاب الشيوعية ، في ارتباطها مع اسلافها ، مرتبطة الا مع روسيا الام المهيمنة على نصف اوروبا ، في ارتباطها مع الاتحاد السوفياتي المحاصر عام ١٩٣٦ . ولم يفهم احد ، في الغرب ، ان الاحزاب الشيوعية انما غيرت كامل طبيعتها في انتقالها من الجبهات الشعبية الى الانظمة الديمقراطية الشعبية .

في ١٣ تشرين الثاني ، حملت الجمعية الوطنية ، بالاجماع ، الجنرال ديغول الى رئاستها . وفي كانون الأول ، كان من اجتماعات اللجنة الحكومية ان حرمت رئيس الجمهورية العنيد ، من كل سلطة ، واحلت الحكومة مكان الجمعية الوطنية . ولم

يعد في امكان احد ، ان يقود هذه العربة المتفرجة الإطارات ، مهما كانت براعة السائق في القيادة .

واذا بالجنرال يخسر ، هذه المرة ، بعدما كان دائمًا رابحاً منذ ١٩٤٠ .

ما زلت في القطار يشق طريقه في الثلج الذي بدأ يتبعثر كلما اقتربنا من باريس . . . تذكرت ان الرئيس سنفور كذلك كان واعياً عملية اهتزاز عالم كامل . والبروفسور توريس ، في جامعة بركلي كما في مكتبي في بور رويال ، كان قال لي : « مع انني رجل من هذا الزمان الغريب » وكان يقول في أيار ١٩٦٨ : « وها هي حركات الطلاب تتجدد ، كما في كاليفورنيا . . . لا تهتم لها . . . » ، او قوله : « هذه المرة ايضاً يربح ديغول ؟ وما يمكن ان يغير ذلك ؟ » او « كل هؤلاء ضيوف عابرون » . وانما لي ربع ساعة لا افكر الا بهلاء الضيوف . وعبارتي : ثمة الشيوعيون ونحن ، وبيننا لا شيء » ذهبت مثلاً ، حتى حين لم تعد تصح . فنحن ، طوال سنوات ، كنا اخصامهم الاقوى والعكس كان صحيحاً كذلك . ومن المستغرب الا نكون اصطدمنا . فالسياسة الخارجية للجنرال . لا تفسر ذلك ، اذ ان الشيوعيين يعتبروننا فاشيين . وهم يعرفون ان لا فاشية دون الحزب الواحد ، وان قرار الجنرال لا رجوع عنه . ومع هذا ، لم يخطر ببال الجنرال ان يحل الحزب الشيوعي ، ولا هذا الاخير (الا بعض الاصطدمات مع عناصر من الشرطة النظامية عام ١٩٤٧) حاول القيام بحركة جماعية ضد الجنرال ديغول . قبل أيار ١٩٦٨ .

بلى . وهو كذلك يتطلع الى « الزمن الغريب » ، كما فلكي

يكتشف كواكب متقلبة بعيدة . ولكن كيف الماضي لم يحمل له الا هذه الاحداث ، في واقع حاسم يجسد الوهم الذي يبقى اسطورة بعد ان يغيب عنه الجميع .

تذكرت صرخات الجنود الالمان وهم يكسرون عصي بنادقنا في باحات المزارع . وكانت البلاد كلها ، يومئذ ، هاجة صوب الجنوب . وتذكرت فرنسا ، ارملة حضورها ، وصوتاً من لندن يصرخ: « ادعو الى ملاقاتي ، مع او بدون اسلحة . . . » . وتأملت : الاسلحة .

وتذكرت الحوار مع الرئيس كاسين وراء طاولات المطبخ المعتبرة مكاتب :

ـ سيدي الجنرال ، نحن لسنا هنا بغتة ، اعرف . ولكن هل نحن الجيش الفرنسي ؟

ـ نحن فرنسا . . .

وتحت فندق الكارلتون غاردنز ، كان بحارة جزيرة السين والمتطوعون الأول . وحين وصل الالمان الى الجزيرة ، لم يجدوا احداً .

وتذكرت الاسطول الفرنسي في مرسى الكبير ، بعدما اغرقه الانكليز . « أما الفرنسيون الاحرار ، فانهم اخذوا ـ مرة نهائية ـ قرارهم القاسي : أن يقاتلوا » .

وسقط اول فرنسي حر من مظلته صريعاً برصاص . ولم يأخذ الفيشيون على الكنرال انه اعدم احداً من الالمان . كل ما في الامر ، كان يطلب منه ـ منبطىء على الارض ـ ان يقدم فضائل

غاندية . وبالفعل ، لم يعدم الجنرال احداً .

وتذكرت سقوط داكار ، وكيف تم التأكيد لافريقيا كلها ، ان فرنسا لم تكن في فيشي -

كما تذكرت الخلافات مع تشرشل : « اذا سحبت يدي ، لن يعود للجنرال ديغول حجر يسند رأسه اليه » . كان ذلك قبل اجتياح روسيا وقصف بيرل هاربور ، حين كانت لانكلترا مقدرات مصير العالم . ومه هذا ، لم يرضخ ديغول للحكومة الانكليزية · « كنت من الضعف بحيث لم اكن استطيع ان ألوي » .

واعلنت الاذاعة : « أمس ، دخلت الفرق الالمانية الى الاتحاد السوفياتي » ، وراح ، من اسبوع الى اسبوع ، يتنافى موكب الانتصارات النابوليونية .

وتذكرت أيضاً ، دهشة الجميع عند الخلافات مع قوة روزفلت الخارقة . وهي ولدها دارلان وجيرو وحوارات بيتان - ليهي ، او هيريو - لافال .

كان الحلفاء يكرهون القوات الفرنسية الحرة والمقاومة ، وشبكات المعلومات الكانت تغطي بريتانيا والنورماندي ، ويكرهون الذين يقاومون في خدمة العمل الالزامي . من هنا ، ان الجنرال ديغول كان يجهد ، منذ ١٩٤٤ ، الى توحيد المقاومين والفرنسيين الاحرار . ومقابل الحلفاء ، اي تجمع مقاومين ، مهما اتسه ، كان يمكنه ان يمثل استمرارية الامة ؟

أسس جان مولان ، باسم الجنرال ، المجلس الوطني

والحركات الموحدة للمقاومة ، ومات من عذاباته دون ان يفوه بها ، بعدما عاد الفضل لـ « شعب الليل » في نسف الجسور ، ووضع الالغام في الطرقات وعمليات التخريب . وجميعها فرضت على الامدادات الالمانية في النورماندي ، التأخيرات التي قالها الجنرال ايزنهاور غير قابلة للاستدراك .

وكذا الامر في فرنسا : ممارسة السلطة في المناطق المحررة ، هي توكل الى فرنسيين أم الى جيش التحرير ؟ كان الاميركيون رأوا - دون كبير ثقة - ان يطبقوا نصاً منسياً من الجمهورية الثالثة ، يوكل الى المجالس العامة تشكيل حكومة جديدة . ولكان ذلك كافياً لتشهد فرنسا اشهراً من الفوضى ، لا يحسمها - بعد غياب فيشي - الا الشرطة العسكرية الاميركية . ويكون لحكومة الحلفاء العسكرية في المناطق المحتلة ، ان تصدر الأوامر لدمج فرنسا بالاراضي العدوة في ايطاليا والمانيا . وكان من العبث تصور مصائر سود وصدامات حقيقية مع الحلفاء ، فمن كان يمكنه منع الاميركيين من التخلي عن ستراسبور ، وإقامة حكومة الحلفاء العسكرية في المناطق المحتلة ؟ ولكن ، للاعتراف بسلطة فرنسا محاربة وغير متضامنة مع الألمان ، كان يجب ان تتوجد فرنسا . فمنذ اليوم الأول للرسو ، برز مندوبو الجمهورية المظليون في لندن او المكونون في المقاومة . وفي كل مدينة مستعادة ، وجد جيش الحلفاء في المجلة ، مندوب الحكومة المؤقتة ، منتظراً منذ ايام او منذ ساعات . كانت فرنسا المحررة تجد نفسها في ديغول ، كما ذات يوم وجدت نفسها في جنود لوكلير الواصلين الى قوس النصر بأحمر الشفاه .

وهكذا ، لدى رجوع ديغول ، كانت تنتظره الجموع بالشوق

الى السلطة . وكان اول قراراته ، الا تعاد الحكومة المؤقتة . وكان سؤال : هل سيستقر في الايليزيه ، في الأوتيل ده فيل ام في مكان آخر ؟ لكنه استقر في المكان الوحيد الذي منه تمكنه محاربة العدو والفوضى معاً : وزارة الحربية .

وهكذا ، كان لتعدد الازياء العسكرية - التي - غداة التحرير طغت على البسة رجال المقاومة في الادغال - ان راحت تحل مكانه ، لدى المقاتلين ، ظاهرة خطيرة . ذلك ان مزج القوات الفرنسية الداخلية مع الفيلق الاول من الجيش ، ادى الى خيارات تصفوية ، جعلت الصادقين من الفريقين يذهبون الى الجبهة او يلتزمون بيوتهم . بقي الآخرون ، ولا لمدة طويلة . واذ ذهبت الاسلحة الثقيلة كلها للجيش . لم يبق منها شيء في المؤخرة . وهكاذ ، ادى تذويب الميليشيات الوطنية - بقرار من حكومة ، احد اعضائها موريس توريز - الى توضيح نقطة هامة : ان ليس للدولة سوى جيش واحد ، مكانه على الجبهة .

كان يجب بناء فرنسا ، مع الاستمرار في النضال ، لتأمين الاستقلال . وكان هدف اول : الوصول مع الحزب الشيوعي الى اتفاق حقيقي ودائم ، كان يتمناه ستالين ، فيما كان الجنرال يرفض تسمية « استقلال » ، حالة الانصياع للولايات المتحدة . لذا ، راح الى موسكو ، وعاد منها بميثاق فرنسي سوفياتي ، جعلت العمال الفرنسيين ينصرفون الى أعمالهم .

وهو ظن في ذلك ، انه يسهم في تكوين الدولة ، واستفاق امام مشروع دستور هو الاضعف ضماناً ، والاقل تهيؤاً لدعم الاستقلال الذي ناضل من اجله . وهذا ما قاله في بايو . انما متأخراً . . . عشر سنوات .

عام ١٩٥٨ ، كان هدفه الرئيسي : الدستور الجديد ، وهدفه المباشر : ايجاد فرنسا مقابل المأساة الجزائرية ، وبدون حرب اهلية . لذا ، الغي الرقابة ، وذهب الى الجزائر .

كان يريد ، قبل كل شيء ، تحرير المسألة الجزائرية المعقدة ، من المسألة الاستعمارية . وازاء انكلترا التي كانت غادرت الهند قبل سنوات ، كان على فرنسا ـ التي بالامس حررت العبيد ـ ان ترتدع عن التعلق بمستعمرة ، وترك الخيار لها بان تضوي تحت اليهمنة الفرنسية ، او ان تتسلم استقلاليتها الذاتية .

لذا ، خلال الحرب وخلال المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني ، حافظ الجنرال على مدى مختلف تماماً عن الجمهورية الرابعة . في البدء ، ظن انه من الممكن التوصل الى ذلك (وجبهة التحرير الوطني لم تقطع معه الحوار ، على أي حال) . من هنا قوله : « مع الاسف ان يكون بعاس فرحاً ذكياً ، امر لا يتعلق بي » ، وقوله في مجلس الوزراء ببعض التشكيك : « يجب ان نعرف اذا كانت المصلحة العليا لفرنسا تتوافق مع مصالح مستوطنات الجزائر » . عندها ، ظننت قراره اتخذ . ومع انه تألم كثيراً مما كان يسميه سرطان الجيش ، اضطر ، لاحياء ذكرى استيلاء لوكلير على ستراسبور ، ان يستدعي آلاف الضباط الذين راحوا يصغون اليه في صمت عدائي . ومرة اخرى ، كان عليه ان يجابه ، وهو ختم كلامه في بطء ، كما لو أنه يتكلم على الحرب الاهلية : « منذ قررت الدولة والامة طريقهما ، تقرر الواجب العسكري نهائياً . خارج هذه المعادلة ، لا يعود من جنود الا الضالون . . . » وعندها كانت ثورة كبار الضباط . . .

وهنا ، تلتقي اسطوريته والفكرة التي عنده عن الدولة ،

والفكرة التي عنده عن نفسه . بهذا ، جسد مقاومة البلاد ، والشعب ، والفلاح الذي جاءه ساعي البريد او المختار لإعلان موت ابنه في الجزائر ، ضد « رجال ذوي وسائل سريعة ومحدودة » يستلون من الجيش مجده وقوته .

أمام شاشات التلفزيون ، راح الناس ينتظرون ، شبه متأكدين انهم سيسمعون الـ « لا » التي سمعوها في ١٨ حزيران : « اذا البس اليوم هذا اللباس ، فلاثبت انني لست فقط رئيس الجمهورية الفرنسية ، بل ايضاً الجنرال ديغول » . او « تتصدون لهؤلاء الرجال بكل قواكم وبجميع وسائلكم » . من هنا ، كانت الديغولية ، تلك المناعة التي فصلت ـ وأمام الخطر نفسه ـ فرنسا عن حكومتها عام ١٩٦١ ، وفرنسا عن حكومتها عام ١٩٥٨ . ويصعق صوته ، في حزم ، هذه المرة : « يا وطني الغالي العريق ، ها نحن معاً ، من جديد ، في حمأة التجربة » .

لم يعد الى مواجهة التموجات الصاخبة ، الا الا في أيار ١٩٦٨ . وبالطريقة نفسها . ذلك انه لم يبد للشبيبة الطالبة ، ؛ الشعور الكان ابداه لجنرالات الجزائر . كان حدس بالثورة العسكرية ، بشكل او بآخر ، وحدس بأزمة الشبيبة في الولايات المتحدة وهولندا وايطاليا والمانيا والهند واليابان وحتى في بولونيا . . . انما لم يحدس احد بالتقاء هذه الازمة مع التحرك النقابي الواسع . والموقف تخذ طابعاً من القرن التاسع عشر ، من تظاهرات ومتاريس وحواجز ، وهو طابع مختلف عما حدث في اضراب عمال المناجم . لكن الصدامات الطالبية ، كما في بلدان اخرى ، بدت ان طبيعتها العميقة ليست في العصيان ، بل هي لا عقلانية في الوصول الى هدفها . لذلك ، لم يلتزم بها

الحزب الشيوعي ، بل واكبها . والتظاهرة الضخمة جمعت جميع القوى السياسية والنقابية التي تحت مراقبة الجهاز الثوري الشيوعي ، الذي كان يدعي انه اقوى من ١٩٤٥ و ١٩٤٧ ، مما لم يكن يجهله الجنرال . فمن خطة الشيوعيين ، ان يجعلوا الثرثارين يتكلمون على القيام بالثورة ، اذ كانوا يعرفون انهم لن يقوموا ، فيكون لهم (للشيوعيين) ان يقطفوها ناضجة . وهذا موقف نموذجي للمحللين : الفوضى العصيانية التي تسبق الاستيلاء على السلطة ، وتتقدم التيارات ضد الحكمم والدولة . من هنا ، ان جميع القوى المناهضة للديغولية والمهيأة للصراع والمؤهلة للشغب ، كانت تتجمع امامهم . سقط قتيل واحد . كان رجال الشرطة كثيرين ، انما وسائل القمع قليلة . وكنا نعرف ما استطاعت قنابل المولوتوف ضد الدبابات السوفياتية في بودابست : لا شيء . وطبعاً ، لن تصدر الحكومة امراً باطلاق الدبابات ضد الطلاب او المتظاهرين ، بل ضد الميليشيات المسلحة . فالحزب الشيوعي لم يعد يملك التصرف بقنابل المولوتوف كما الحكومة بدباباتها . كل من الفريقين كان رهن الرأي العام الذي بدونه لا عصيان ولا حكم . ورمي الزهر : الحزب الشيوعي ـ الكان منذ فترة طويلة يتحدث عن « المشاركة في حكم ذي وحدة ديمقراطية » ـ اعلن خشية تدخل الجنرال ديغول : « ان شعب فرنسا يفرض ـ في النظام الجديد ـ ان تأخذ الطبقة العاملة وحزبها الشيوعي مكانها كاملين » . اذن ، التحديد واضح ، يريدون المكان كاملاً . والجنرال ـ الذي تكلم عابراً على الجزائر في خطابه الانقلابي ، لم يتكلم قط على الطلاب . كان يخاطب الفرنسيين باسم السلام العام . من هنا قوله :

« لن انسحب . عندي انتداب منحنيه الشعب ، وشاملاً فراغه . لن اغير رئيس الوزراء ، الذي - بقيمته وصلابته وقدرته - يستحق ثناء الجميع . وهو الذي يقترح علي التغييرات التي تبدو له ضرورية ، في تركيبة حكومته . واليوم ، اعلن حل الجمعية الوطنية » .

بهذا ، احل فرنسا مكان الحكومة . ومنذئذ ، اصبح الجنرال ديغول ضامناً الاستفتاء الشعبي في الانتخابات اللاحقة . وهكذا وضعت الجمهورية الخامسة على المحك مؤسساتها الرئيسية . وانتهت المهزلة العصيانية ، وبات على فرنسا نفسها ان تحدد مصيرها .

استرجع كلامه : « اينما كان ، وفوراً ، يجب ان ينتظم العمل المدني ، لمساندة الحكومة والمديريات التي صارت مفوضيات الجمهورية ، لتأمين مصالح الشعب ومنع حصول الخلل . ان فرنسا مهددة بالديكتاتورية ، اذ تحاول جهات اخضاعها لحكم يفرض عليها ، في يأس وطني ، المنتصر ، اي الشيوعية التوتاليتارية ، التي تبدأ بتقنيع الحكم بمظاهر غشاشة تستخدم الطموح والحقد اللذين لدى السياسيين المعزولين » .

خلال كلامه ، كانت جموع ، اكثف مما عند التحرير ، تغطي الشانزيليزيه . كانت تمت عملية رفع الرواتب ، والاصلاحات الجامعية ، وسقطت نهائياً طموحات الحرب الاهلية الكانت رمت فرنسا عشرين عاماً لى الوراء . ولم يعد خطر مداهمة البلاد ماثلاً ، اذ باتت مستعدة للمجابهة ، والصوت بلا وجه ، كان يلاقيه مليون نسمة الى الشانزيليزيه . والحشود التي كانت سفارة

الولايات المتحدة تلتقط هتافاتها ، منذ ساحة الكونكورد ، لتبلغها الى البيت الابيض بلغت قوس النصر . وفي المساء نفسه ، اعلن الحزب الشيوعي انه لا يطلب سوى « ديمقراطية حقيقية » . وبعد الرابع من الشهر ، عاد العمل في اينما كان . فهل يمكن تصور حكومة اوريول تستطيع مواجهة ايار ١٩٦٨ ؟ وخاصة مع رجال الشرطة في حالة الاضراب ؟

من اللافت في « المذكرات » ، انه تشد للالتفات الى الماضي . فالاحداث التي تبلغ حد الاسطورة ، توحي بغير المتوقع وتغير القدر . في هذه الساعة ، حتمًا ، ايصور الجنرال ديغول يدور في افكاره الحصينة ، كما في مكتبه الذي ارخى ستائره على الليل المثلج . اتخيله يفكر تارة بنفسه وطوراً بان الاساسي سيعود الى البروز . من هنا « مذكرات الأمل » فهو درس اوروبا التي تلت الحروب النابوليونية . « حين فرنسا تعود فرنسا ، سيعود الانطلاق من الذي فعلته ، لا مما تم منذ رحيلي » . هل يعني : من افكاره ام من ١٨ حزيران آخر ؟ كان دائمًا يقول ان ايديولوجيته لا تسلك في ميدان مسطح ، وان فرنسا ستحيا اذا الارادة الوطنية ساندتها حتى انبثاق عير المتوقع فحين نودي بريشليو ، كانت فرنسا قوة من الدرجة الثانية .

في تفكير الجنرال ، ان هذا ، طارىء انقلابي لكل ما يبدو انه يهدد فرنسا . ولكن ، من يبلقها في ما لا يبدو مس العالم ريشليو لم يكن يخاف انقراض المسيحية . قال : « حاولت دعم فرنسا ضد نهاية عالم » . من هنا ان الامة ، بتشكل رئيسي ، هو الذي فرنسا اقنعت به اوروبا ذات يوم ، ولدت من صرخة « الوطن في خطر » ، ومن الهيولي التي فرضتها الجمعية

التأسيسية . عام ١٩٤٠ ، كانت فرنسا معنية بشكل مباشر . فهل لا تزال معنية في هذا العالم المشوه الذي تتناحر فيه بقايا الامبراطوريات ؟

عند احتضاره ، قال اندريه جيد : « سيكون لفرنسا ، بعد ، ان تدهش العالم . . . وهو هذا ، الصراع بين ما هو منطقي وما ليس بمنطقي » . وفي الانفاليد ، عند معرض المقاومة ، أمام العمود المنخور برصاص ضحايانا ، وحوله الصحف الممنوعة ، قال الجنرال لمنظمي المعرض ، ما كنت قلته عام ١٩٤٥ : « الصحف تنقل ما قاله رجل المقاومة ، لكنها لا توضح كثيراً كيف قاوموا وكيف ماتوا لم يعد سواهم لاستكمال الحرب التي بدأت عام ١٩١٤ ، وكما مقاومة بين حكيم ، كان مقاومو المقاومة شهوداً على كل شيء » . بلى ، وهو أيضاً كان شاهداً . فهو ـ وان وحده في كولومبي بين الذكريات الموت ، كما كبار قادة فرسان فلسطين امام النواويس ـ لا يزال سيد فرنسا . هل لأنه تحمل مسؤولياتها ؟ هل لأنه ، طوال سنوات عديدة ، عالج جثتها فيما يقول للعالم انها حية ؟ منذ قليل ، وأنا عنده ، بدا كأنه يحملها ، حين رفع يديه أمام النافذة والثلج : « انها الجنازة الكبرى » فهو عاش بعد كل من حاربهم : هتلر ، موسوليني ، وبعد الذين حارب معهم ، روزفلت ، تشرشل ، ستالين . وبقي في شعور الجنرالات النابوليونيين الكانوا يقولون نحو عام ١٩٢٥ : « زمن الجيش الكبير » . . . جميع هذه ، ظلال صديقة ، تلعب على ارض بائرة اوراقاً سوداء . . . امام كل ما صار : اوروبا المشتعلة ، النتحار هتلر في مخبئة ، القطارات المتوقفة التي تصفر صفارات طويلة في المتاهات السيبيرية ايذاناً

بموت ستالين . . . هل يفكر بـ « عصر عظيم » بعوض « رجال عظماء » ؟

تماماً كما بعد ١٨١٥ ، استقال قدر العالم . انما بقي فيه الايمان الذي بحجم المغامرة حين فرنسا في المصير : الايمان بغير المتوقع ، فليس من رجل ردون احلام . لذا ، هو يفكر ، ولو بافتخار قاتم ، في ما لن يقوله قط : « اذا كان الفصل الاخير مما كانته اوروبا ، بدأ ، فلن ندع فرنسا تموت في الساقية » .

ولكن ، لكي تفهم فرنسا ما يريد ان يورثها ، كان عليه ان يقدم لها ما هو ابعد من الحكم ، وابعد من ترك الحكم : ان يموت .

كولومبي

١٣ تشرين الثاني ١٩٧٠

بعد وفاته بعشر دقائق ، غادر الطبيب منطقة البواسري ليعود صبايا احد عمال سكة الحديد . طلبت السيدة ديغول من احد النجارين ان يسحب المحبس من اصبع الجنـرال . وما أنهيـا عملهما ، حتى استدعتهما السيدة بليك التي توفي زوجها المزارع .

اليوم ، في يوم الجنـازة الرمـادي ، استعجلت تحت جرس الحزن في كولومبي ، تجيبه جميع اجراس فرنسا ، وفي بالي ، جميع اجراس التحرير . رأيت المدفن مفتوحاً ، وعليه اكليلان كبيران من ماوتسي تونغ وشوان لاي . ففي بكين ، نكست الاعـلام في المدينـة المحرمـة . وفي كـولـومبي ، في الكنيسـة الصغيرة ، ستكون الرعية الصغية ، والقاتلة ، والسلك : جنازة الفرسان . علمنا من الاذاعة ان ساحة الشانزيليزيه ـ التي نزلها

قبل ايام ـ باتت تعج بحشود صامتة . هنا ، في كـولومبي ، وخلف البحارة المتأهبين بأسلحتهم ، كانت ختيارة ، ذات شال اسود ، تصرخ : « لماذا تمنعونني من المرور ! هو قال : يأتي من يشاء ! يأتي من يشاء ! » . وضعت يدي على كتف البحار : «كان يجب ان تسمح لها ، هذا امر يسر الجنرال . فهي تتكلم كما فرنسا » . لكنه عاد فاستدار بدون جواب ، وبدون ان يحرك يديه ، كما لو انه يقدم سلاحه الى فرنسا البائسة الوفية ، فيما هرولت الختيارة نحو الكنيسة ، امام صلصلة العجلة التي تحمل التابوت .

على الشانزيليزيه

الا في الصف الاول ، كـان ظـل الاعـلام المئة ، يغلّف حَمَلَتها ، جميع هذه الرايات المبلولة المرتفعة في الليـل ، وسط الصمت الذي لا يخدشه سوى بطء الخطوات ـ كانت تتقدم كما اشجار غابات شكسبير . قوس النصر وحده كان منوراً . وكان النهر يجري في العتمة التي ما تزال فيه انوار بعض الحوانيت . الليل جاثم بتقل : في ساعة الليل ، في اضواء قوس النصر ، وفي الغيمات المستعجلة التي ينزل مطرها طوفانـا على النـاس المحتشدين على الارصفة . وكانت ظلال تتأمل ظلالاً اخـرى تحت المطر . ليست مظاهرة هذه : فمن اول الشارع الى آخره ، يتكلم الجميع بصوت خافت . وهم ليسوا في جنازة ، اذ ليس امامهم تابوت . انها مسيرة جنائزية نحو قوس النصر الذي صار مدفناً ، نحو الشعلة المتوهجة التي تتناثر من خلالها نقاط المطر .

بين الحشود ، تقدم مذيع راديو لوكسمبور ، الميكروفون في يده ، من زميل له :

ـ ماذا يخبرونك هنا ؟

ـ بالحرب ، النساء يتكلمن . الشباب ، حين اسألهم : هل صوّتم بنعم ؟ كانوا يديرون لي ظهورهم ، فافهم انهم صوتوا ذلاً . النساء يقلن تقريباً الشيء نفسه : « نحن ندين له بكل شيء » . او « امطرت ام لم تمطر ، سنبقى » . واحداهن قالت لي : « فكرة رش الازهار ، حتماً ، فكرة السيدة ديغول » . واخرى ، تتأبط « الاومانيتيه » قالت : « انا جئت اقول له : وداعاً » . . . والى عجوز قلت لها : « هاتي زهرتك ، ارشها مع زهرتي » ، أجابت : « ثلاث سنوات رافنسبروك ، ثلاث ساعات مطر ، لا تهم » . . . وانت ؟

ـ أنا سجلت لقطات من بائعات البنفسج وبائعي الزهر : الاجوبة نفسها . احدى البائعات قالت لي : « للاسف انه لا يرانا » .

لكنها مخطئة . فالجنرال ، وان ميت ، يسمع هذا الصمت تجلجله آلاف الخطوات . فهو اكثر حضوراً هنا ، منه في كولومبي ، الا حين وصلت العجلة الى مدخل البواسري ، وحملت النساء اطفالهن . عاد المطر اكثر زخماً . كثيرون يحملون مظلات . . . الحشود تتزايد : من الشوارع ، من البيوت ، ومن محطات المترو . وارتفعت تحت المطر انغام المارسلياز ، فراحت الازهار تتنقل من يد الى يد ، وصولاً الى قوس النصر . لم تعد هذه الازهار تخص احداً . انها الارض تؤدي التحية للموت .

، وعاد الموكب يواصل طريقه بتؤدة في الليل الجنائزي الطويل . موكب مهيب يزحف معه صمت الجميع ، ديغوليين

وغير ديغوليين. كثيرون ممن يتقدمون في بطء. كانوا هنا في مظاهرة أيار ١٩٦٩، وكثيرون كانوا في الباستيل، في المظاهرة المضادة، وآخرون كانوا هنا حين اجتاز الجنرال ديغول الشانزيليزيه امام الجنود الواصفين الاحمر الشفاه.

ان هذا الموكب يتوغل كثيراً في الماضي، ليلتقي بالموكب الجحفل الذي كان يوم وداع فيكتور هوغو. كان الشاعر الكبير قال «لا» للامبراطورية عشرين سنة، وللسقوط وللقمع. وبعيداً في الليل، ثمة الـ «لا» التاريخية. والموكب يتقدم كما موكب ثيبا نحو مدفن انطيغون. فالجندي المجهول الذي تنتصب عليه الشعلة، هو احد الصارخين «لا» فوق نهر موتانا الذي تحت الارض، اتذكر النساء السود في كوريزيا، واقفات على تبر الطائلة تذكاراً للمقاومين الدين قتلهم المحتلون. واتذكر الفلاحين اتوا يضعون كيلو من السكر النادر تحت الصليب الخشبي لرفاقنا المقتولين رمياً بالرصاص.

نساء كثيرات. . . والرجال يحملون الزهر عشوائياً. ففي ذاكرتنا القديمة، ان الرجال لا يحسنون حمل الزهر، والنساء يقدمن الاضحيات. ومعسكرا بوشنوالد وداشو، عرفا جميع ظلال الذين اختاروا الموت، وما اكثر من الموت.

اخيراً، هنا السياسة تفقد معناها: المستشارون البلديون الشيوعيون، هم هنا. ونساء يحملن علم اللورين الصغير ذا الصليب، يتقاسمن باقاتهن مع جاراتهن حاملات جريدة «الأومانيتيه» ولم تجدن زهراً. لم يعد الامر يهم الديغولية، ولا فرنسا. والذين يسيرون مشياً في هذا الليل الممطر لم يعودوا ينتسبون الا الى المشاركة التي وضعهم فيها هذا الميت بلا تابوت. تماماً كما مقاتلونا الذين صرخوا باسمه على عمود الاعدام.

راحت فرقة نظامية تجتاز النهر. على ارض الساحة، انعكاس قوس النصر يتلألأ تحت مياه المطر. الذين لم يستطيعوا الابتعاد اكثر، جمعوا ازهارهم تحت المارسلياز.

الموكب يتقدم. فتح هيبيون معاطفهم وسحبوا منهم اقحواناً. العلم الكبير الذي تحاول اليمامات الاختباء فيه، يرفرف بصوت المياه تسقسق، عليه. وفوق الهيبيين، لائحة معارك نابوليون ، تضيع في العتم.

ها الاحياء يرشدون زهورهم، فيما الشعلة الكبيرة، تتواصل صعداً، وتتماوج ضعفاً وتوهجاً، على وجوههم المبللة.

Malraux Les chênes qu'on abat...

Texte traduit en arabe

par

Henri ZOGHAIB

MARIANNE/OUEIDAT
Beyrouth

André Malraux
Les chênes qu'on abat...

